الدفتر الصامت

يوميات محامٍ في الجنوب الشرقي

طارق الموريف

الدفتر الصامت

يوميات محامٍ في الجنوب الشرقي

طبعة 2025

الدفتر الصامت

يوميات محامٍ في الجنوب الشرقي

رقم الإيداع القانوني:
الرقم الدولي (ردمك):
الطبعة: الأولى 2025
الحجم: 21/14.8 سم
عدد الصفحات: 222 ص
الطبع والإخراج الفني: مطبعة وراقة بلال
الهاتف / الفاكس: 0535618603
العنوان: رقم 204، حي الأمل، النرجس، فاس - المغرب
جميع الحقوق محفوظة ©

إهداء

إلى.....

هيئة المحامين بمراكش نقيبا ومجلسا؛

وإلى...

استاذي **صلاح الدين الرشيد** الذي أخذنا منه مبدأ انسانيا في مهنة الشرفاء .....

خيوط متشابكة من الظلام

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم، انفتح أمامي ملفٌ جديدٌ في المكتب، لكنه ليس كأي ملفٍ آخر. عادةً ما أعتاد على صخب قضايا النصب والاحتيال، حيث تتراقص الأرقام وتختبئ الحقائق خلف ستائر الأوراق. قضية "أحمد" – أو المتهم، كما سنطلق عليه في سجلاتنا – كانت تسير في هذا الاتجاه، متهمًا بخداعٍ ماليٍّ متقنٍ، وقد مرت على وقائعها ما يقارب العام.

لكن ما كُشف اليوم خلال البحث في ملفات "أحمد" الرقمية، قلب الطاولة رأسًا على عقب. لم نكن نبحث إلا عن خيوطٍ تقودنا إلى الأموال المنهوبة، فإذا بنا نقع على كارثة إنسانية مدفونة في أعماق ذاكرة حاسوب. صورٌ ومقاطع فيديو، تشبه كوابيس منتصف الليل، لمكانٍ مظلمٍ يشبه عيادة سرية، وأدواتٍ باردة، ووجه امرأةٍ تُعاني. الأدهى من ذلك كله، أنها كانت حاملاً.

تلك اللحظة كانت كصدمةٍ كهربائيةٍ أيقظت فيّ المحامي والإنسان معًا. لم تكن هذه مجرد جريمة نصب، بل كانت

إجهاضًا غير قانونيٍّ، انتهاكًا صارخًا لروحٍ لم ترَ النور. عامٌ كاملٌ على هذا الفعل الشنيع، والسرّ كان مطويًا تحت غبار النسيان، أو بالأحرى، تحت عباءة الخوف والتستر.

كيف لهذه الجرائم أن تتشابك؟ هل كان هذا الرجل، الذي يحترف النصب المالي، متورطًا أيضًا في هذه الأعمال اللاإنسانية؟ هل قادته دوافعه المادية إلى استغلال ضعف الآخرين بهذا الشكل المروع؟ الأسئلة تتوالد في ذهني، وتضغط على كاهلي.

الآن، تحول مسار القضية بالكامل. لم تعد مجرد ملاحقة لأموالٍ مفقودة، بل أصبحت بحثًا عن العدالة لروحٍ أزهقت، وعن كشفٍ كاملٍ لشبكةٍ ربما تكون أوسع وأكثر خطورة مما نتخيل. هذه القضية تتطلب حساسيةً ودقةً لا مثيل لهما. علينا أن نكشف كل الخيوط، وأن نُعيد للضحية، وإن كانت مجهولة حتى الآن، شيئًا من كرامتها المفقودة.

قبضة العدالة على خيوط الظلام

أيها الدفتر الصامت!؛

لم أستطع النوم جيدًا الليلة الماضية، ظل عقلي يحلل ويتفحص كل زاوية في هذه القضية. في صباح اليوم، كنا في قمة التوتر. الأدلة التي كُشفت بالأمس كانت قوية بما يكفي لتحرك المياه الراكدة. تواصلت مع معارفي في الشرطة القضائية، وشاركتهم ما عثرنا عليه. الدهشة كانت بادية على وجوههم، فهذه الجرائم الإنسانية كانت خارج نطاق بحثهم الأولي تمامًا.

بعد ساعات من التنسيق المكثف والتحليل المشترك للبيانات، صدر أمر بالقبض على "أحمد". لم يكن الأمر يتعلق فقط بالنصب بعد الآن، بل بجناية أخطر بكثير. في وقت متأخر من هذا المساء، تلقيت اتصالاً يؤكد الخبر: تم إلقاء القبض على "أحمد".

لم تكن العملية سهلة، فقد قاوم، محاولاً إنكار كل شيء، لكن الأدلة الرقمية التي بحوزتنا كانت قاهرة. الآن، تبدأ المرحلة الأصعب: التحقيق معه، ومحاولة كشف كل خيوط هذه الشبكة

المظلمة. هل هناك آخرون متورطون؟ من هي تلك المرأة؟ هل لا تزال على قيد الحياة؟ وما هي الظروف التي دفعتها إلى هذا المصير المأساوي؟

الأسئلة تتراكم، ولكن إلقاء القبض عليه اليوم هو خطوة أولى وحاسمة نحو كشف الحقيقة الكاملة. العدالة تسير بخطوات بطيئة أحيانًا، لكنها حتمًا ستصل.

حين تُشرق شمس العدالة من كبدِ الأم!

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم، انطوى بين يديّ ملفٌ لم يكن مجرد أوراقٍ مرقمة، بل كان كتابًا مفتوحًا على أعمق تناقضات النفس البشرية. "العنف ضد الأصول"؛ عنوانٌ ثقيلٌ كالحِمل، يخفي خلف طياته قصةً تدمي القلب وتُحير العقل. بطلتها، أمٌّ نُقشت على وجهها خريطةُ الألم، وعاشت سنتينِ عجافًا تحت وطأة عنفِ فلذة كبدها، طالبٍ في سلكٍ كان يُفترض به أن يُبنى للعطاء لا للبطش. سنتانِ من الصمت المُرّ، من ليالٍ تندسّ فيها الدموع خوفًا، ومن أيامٍ تتجرع فيها غصصَ خيبةٍ لم تخلق لقلبِ أمٍّ أن يحتملها.

لقد كانت تلك السنتان دهراً كاملاً من الانتظار، انتظارٍ لما لا يجيء، إلا مزيداً من الجراح. ثم جاءت اللحظة الفارقة، لحظةٌ تطلّبت شجاعةً تُناطح الجبال، عندما قررت هذه الأم المكلومة أن تكسر قيود الخوف وتصرخ ألمها في ردهات العدالة. رفعت شكواها، لا لتنتقم، بل لعلّها تجدُ ملاذًا من طوفانٍ كاد يغرقها.

في قاعة المحكمة، حيث تتجسّدُ فصولُ الدراما الإنسانية، كانت الأمُّ تجلس كتمثالٍ من شمع، يذوبُ ببطءٍ تحت وطأة نظرات القضاة والحضور. حاولتُ أن أقرأ ما وراء صمتها، أن أفكّ رموزَ حزنٍ لا يمكن للكلمات أن تصفه. وعندما حان دورها، ارتجف صوتها كقنديلٍ يكادُ ينطفئ، وبدأت تسرد حكايتها، كل كلمةٍ كانت تخرج منها كطعنةٍ غائرةٍ في صدرِ قاعة المحكمة، تستنهض فينا الإحساس بالظلم والأسى.

لكنّ الصاعقة لم تكن في قصتها المؤلمة، بل في نهايتها. فبعد أن رسمت صورةً قاتمةً لابنٍ عاقٍ، وبعد أن كشفت عن وحشيةٍ لا يمكن للعقل أن يتقبلها، رفعت الأم عينيها المجهدتين إلى القاضي، وقالت بصوتٍ يكاد يختفي في زحام الأنين: "يا سيدي القاضي... أرجوك... خفف عنه. إنه فلذة كبدي".

تجمد الدم في عروقي. كيف يمكن لقلبٍ أن يطلب الشفقة لمن عذّبه؟ كيف يمكن لروحٍ أن تغفر لمن طعنها بلا رحمة؟ "فلذة كبدي"... جملةٌ قصيرةٌ حملت في طياتها بحرًا من التضحية، ومحيطًا من الغفران، وشمسًا تشرقُ من كبدِ أمٍّ لا تعرف للكره سبيلاً.

القاعة صمتت كأن على رؤوسها الطير. نظرات القاضي تجوّلت بين الأم وابنها، كأنه يزن ميزان العدل بميزان الرحمة. كانت لحظةٌ تاريخيةٌ في ردهات المحكمة، لحظةٌ يتجاوز فيها القانون نصوصه الجافة ليلامس عمق الوجدان الإنساني. لم تكن هذه القضية مجرد "ملف عنف"؛ بل كانت مرآةً تعكس صراعًا أزليًا بين واجب العقاب ونداء الغفران.

وبعد برهة صمتٍ بدت كالأبد، نطق القاضي بحكمه. لم يكن مجرد قرارٍ قضائي، بل كان مزيجًا من العدل والإنسانية. لقد خففت المحكمة الحكم على الابن، ليست شفقةً على جريمة، بل استجابةً لصرخةٍ قلبيةٍ لا تُردّ من أمٍّ سامحةٍ غفرت قبل أن يُطلب منها الغفران. كان القرار بمثابة تذكيرٍ لكل من في القاعة، بأن وراء كل قضيةٍ أرقامها، توجد أرواحٌ، وأن القضاء الحقّ لا يكتمل إلا إذا ضمّ بين جنبيه فهمًا لتعقيدات الروح البشرية.

خرجت الأم من القاعة بخطواتٍ أثقلتها السنين، ولكنني رأيتُ في عينيها بصيصَ أملٍ جديد. لم يكن انتصارًا قانونيًا بالمعنى التقليدي، بل كان انتصارًا للحبّ غير المشروط، وللرحمة التي تتخطى أسوار السجون. هذا المشهد، وهذه

الكلمات، ستبقيا محفورتين في ذاكرتي، كشاهدٍ صامتٍ على أن الحبّ، وإن كان مجروحًا ومنكسرًا، يمكن أن يكون أقوى من أيّ قانون، وأعظم من أيّ عقوبة. فهل تستطيعُ العدالةُ أن توازن بين حقّ الأمّ في الأمان، وغريزتها الأزلية في حماية ابنها؟ سؤالٌ سيبقى يتردد صداه في ردهات هذا الصرح، مذكّرًا بأن القوانين، مهما كانت صارمةً، غالبًا ما تقفُ عاجزةً أمام عظمةِ قلبِ الأم، وحكمةِ قاضٍ يرى ما وراء السطور.

الغدر في ردهات العدالة

اليوم، أيها الدفتر الصامت، أخطُّ فيك مرارةً لم تعتدها صفحاتك، ودرسًا قاسيًا في دهاليز هذه المهنة الشريفة. ملفٌ تجاريٌّ، كان بالأمس مجرد أوراقٍ تحمل أرقامًا وحججًا، تحوّل اليوم إلى سيفٍ غرز في خاصرة الثقة، وسُمٍّ دسَّه أقرب الأقربين. لطالما آمنتُ بأن قاعة المحكمة هي ساحةٌ للخصوم، لا لمن يفترض بهم أن يكونوا سندًا، وأن المبادئ المهنية خطٌّ أحمر لا يتجاوزه إلاّ عديمُ الذمة. لكنّ اليوم، انكسر هذا الخط، وباتت الحقيقة واضحةً كالشمس في وضح النهار: رفيق دربٍ تلبس ثوب الذئب، ونهشَ من لحم أمانتي.

في المرحلة الابتدائية، اتخذتُ قرارًا مهنيًا مدروسًا: الإبقاء على وثائقَ معينةٍ وعدم الإدلاء بها، إيمانًا مني بأن ذلك سيصون حقوق موكلي في مرحلةٍ لاحقةٍ من التقاضي، وتحديدًا في الاستئناف. كانت خطةً محكمةً، جزءًا من استراتيجيةٍ قانونيةٍ طويلة المدى، لا يعرف أبعادها إلا من غاص في تفاصيل الملف وتشعباته. لكن ما لم أحسب حسابه، لم يكن خصمًا قانونيًا، بل

طعنةً جاءت من حيث لا أحتسب. شخصٌ كان الأنا الآخر، تجرأ على ما هو أدهى من الخصومة. تواصل مع موكلي، ودسّ السم في العسل، مبررًا خسارة المرحلة الابتدائية بـ"عدم إدلائي بالوثائق". زعم أنه "صاحب غاية حسنة"، وأن "حُبَّهُ لتقديم الخدمات مجانًا" هو ما دفعه لتقديم عرض مغري في الاستئناف "بدون مقابل". يا لها من حيلةٍ مكشوفة، ولكنها، للأسف، وجدت طريقها إلى قلب موكلي الذي لم يدرك خبايا المكر!

جاءني موكلي، يحمل في عينيه خليطًا من الحيرة والخيبة، ويسرد لي القصة "بالحرف". طلب ملفه، مقتنعًا بأن هذا "الأنا الآخر" هو "المناسب للدفاع عن حقوقه" لأنه "سيتكفل بذلك مجانًا". تجمدتُ في مكاني، أرى سنواتٍ من الجهد والإخلاص تتبخر أمام حيلةٍ دنيئة. كيف يمكن لقلبٍ أن يحتمل هذا الكم من الغدر؟ ليس من خصم، بل ممن افترضتُ فيه الأمانة والشرف! كانت لحظة فاصلة، صراعٌ داخليٌّ يمزقني. بين غضبي العارم من هذا السلوك المشين، وبين قَربي لهذا الشخص (الذي كان صديقًا!)، ورغبتي في تجنب فضيحةٍ أو مواجهةٍ قد تسيء للطرفين، ولسمعة ما ننتمي إليه جميعا. حاولتُ أن "أغض

الطرف" عن طلبه الصادم، وأن أُطمئن موكلي بأنني "سأقوم باللازم"، وأن "الوثائق التي لم أدلِ بها إنما هي في صالحه وليست ضده". كلماتٌ حاولتُ بها ترميم ما تهدم، وإعادة الثقة التي تآكلت. لكن المهانة لم تتوقف عند هذا الحد. فعندما حان الحديث عن مصاريف الاستئناف، والتي تقدر بـ مبلغ من المال، رفض موكلي دفعها. كانت حجة الأنا الآخر "الخير" قد بلغت مداها: "فقد كان ظل الإنسان وعده بأدائها عنه على وجه الخير والإحسان، ويكفي فقط الحصول على تنازل عن الملف من مكتبي". هنا، أيقنتُ أن الأمر تجاوز مجرد المنافسة المهنية، ليدخل في حيز الدناءة والابتزاز الرخيص. لم يعد الأمر يتعلق بقضية، بل بسرقة، وضربٍ لسمعة الأنا الآخر، وتشويهٍ لصورة ما نتمي إليه كلها. خرج موكلي من مكتبي، تاركًا خلفه فراغًا مؤلمًا ودرسًا قاسيًا. درسٌ بأن الثقة في عالم العدالة قد تكون أحيانًا عملةً نادرة، وأن بعض الذئاب تلبس ثياب المحسنين، وتتخذ من "الخير والإحسان" ستارًا لغايةٍ دنيئةٍ وشائنة.

مضت الأيام، ودارت عجلة التقاضي، ولكن هذه المرة في غيابي. أدى ظل الإنسان الآخر "الخير" مهمته، وأدلى بالوثائق

التي "خبأتها"، تلك التي ظن أنها مفتاح النصر السريع. لكنّ الحقيقة، أيها الدفتر، لا تخضع لحيل الأفاعي. فالقضية لم تكن مجرد وثائق تُعرض، بل استراتيجية تُبنى، وحجة تُحاك. وكما توقعتُ تمامًا، فشل الأنا الآخر فشلاً ذريعاً في كسب القضية في المرحلة الاستئنافية. لم تكن الوثائق وحدها كافية، بل كان ينقصها الفهم العميق للملف، والرؤية الشمولية التي بنيت عليها خطتي الأصلية.

عادت القضية لتأخذ مسارها الطبيعي نحو محكمة النقض، وهناك، أيها الصديق، حدث ما لم أتوقعه. بعد حكم الاستئناف بالخسارة، عاد الموكل لي طرق باب مكتبي. كانت عيناه تحملان هذه المرة مزيجًا من اليأس والندم، لا الحيرة والخيبة فقط. توسّل إليّ، وألحّ في طلبه، معترفًا ضمنيًا بخطئه، وبأن الوعود البراقة كانت سرابًا. لم يكن الأمر سهلاً عليّ؛ فجرح الغدر لا يندمل بسهولة، ولكنّ ضميري المهني كان أعمق من أي مشاعر شخصية. إن الحق يجب أن ينتصر، وواجب الدفاع عن المظلوم أسمى من أي خلاف أو جحود.

قبلتُ الترافع عنه مجددًا، بعد أن عاد الملف من النقض. عدتُ لأغوص في تفاصيله، لأبني من جديد ما هدمه غيري، ولأضع الوثائق في سياقها الصحيح، وأقدم الحجج بقوة ورصانة. وبعد مسيرةٍ مضنيةٍ أخرى في دهاليز المحاكم، كان الانتصار حليفنا. كسبتُ القضية. أعيد الحق إلى صاحبه، وأُغلقت فصول هذه الملحمة القانونية التي كشفت عن الكثير من خبايا النفوس.

هنا، أيها الدفتر، تكمن المفارقة الموجعة. كنت أنتظر كلمة شكر، لفتة تقدير، أو حتى مجرد دفع أتعابي التي وعد بها هذا الموكل بعدما رأى بأم عينه الفرق بين المهنية الصادقة والوعود الكاذبة. لكنّ المفاجأة كانت استمرار الموكل في جحوده ونكرانه للجميل. لم يكلّف نفسه حتى عناء إرسال كلمة شكر واحدة، ناهيك عن دفع الأتعاب المستحقة. انقطعت أخباره بعد استلام حكم النصر، وكأنني لم أكن سوى أداة لتحقيق مآربه، ثم رُميت جانباً.

هذه النهاية، وإن كانت مؤلمة على الصعيد الشخصي، إلا أنها عززت في داخلي قناعة راسخة: إن المحاماة ليست تجارة للمشاعر، بل رسالة حق وعدل. لقد آثرتُ ضميري المهني على

عواطفي الشخصية، وكان هذا هو الانتصار الحقيقي. لم أبحث عن الشكر أو المال في تلك اللحظة بقدر ما بحثت عن إقامة العدل. وكم كان شعوري بالسعادة عظيمًا وأنا أرى الحق يعود إلى أهله، حتى وإن كان صاحب الحق نفسه جاحداً ناكراً. هذا هو جوهر عملنا، أيها الدفتر، أن تكون نصيراً للحق، حتى لو كانت النفوس التي تدافع عنها لا تعرف معنى العرفان.

تكسير الأماني

أيها الدفتر الصامت !؛

أخطُّ لك فصلاً جديدًا من فصول المحكمة الكبرى للحياة، حيث تتجلى غرابة البشر وواقعية القانون. قصةٌ بدأت بشرارة أمل ضعيفة، وتحولت إلى مطاردة لسراب، لتنتهي بدرس قاسٍ في فهم حدود الوهم والحقيقة. بطلها موكل، كان يبحث عن تعويضٍ خياليٍّ لدراجةٍ أصبحت رمادًا، وقيمتها لا تتجاوز ألفي درهم. دراجةٌ ابتلعتها يد الإدارة بعد رحلة صيدٍ غير مشروعة، لتصبح مجرد ذكرى، ويتحول مالكها إلى ساعٍ وراء كنزٍ وهميٍّ.

تلقفتُ القضية، كجنديٍّ يتقدم لساحة المعركة، مدفوعًا بإيماني بالحق وبضرورة جبر الضرر. رسائلٌ رسمية، رحلاتٌ مضنية، وأموالٌ أُنفقت من جيبي الخاص، تجاوزت ما قبضتُه كأتعاب. كانت تلك هي التضحية الأولى في سبيل العدالة، وفي سبيل إطفاء غضب موكلٍ كان يتوق لـ"تعويضٍ عادل". بعد شهورٍ من الترافع والمثابرة، أشرقت شمس الحكم، معلنةً عن تعويضٍ قدره 20000 درهم. انتصارٌ صغير، لكنه منطقيٌّ في ميزان القانون.

لكن ما لبثت تلك الشمس أن غابت، ليحل محلها سحابةٌ من الخيبة. عاد الموكل، وعلى وجهه مزيجٌ من السخط واللوم، لا يرى في الحكم سوى "فتاتٍ" لا يليق بطموحاته. لقد كان يتخيل ملايينًا، ووعودًا كاذبةً حيكت في أروقة الدجل، لا في قاعات العدل. قدم تنازلاً، مدفوعًا بسراب الأنا الآخر، أو بالأحرى "وسيطٍ" وعده بقصرٍ من الذهب على أنقاض دراجته القديمة. لم تكن صدمةً لي، أيها الدفتر، فلقد اعتدتُ على تقلبات النفوس.

هنا، في لحظة الصدام بين الطمع والمنطق، ارتديتُ ثوب الدبلوماسية، وتسلحتُ بـحكمة السنين. استمعتُ له، لم أعاتب، بل عرضتُ عليه عرضًا لم يكن يتوقعه: "سأدفع عنك مصاريف ذلك الأنا الآخر، وسأقف إلى جانبه إن حقق لك ما وعد به". كان ذلك بمثابة فخٍّ ناعم، لأكشف له زيف الوعود. لم يلبث طويلاً حتى انقطع خيط الوهم، واختفى "الوسيط" كالشبح، تاركًا موكلي يواجه حقيقة أن الملايين كانت مجرد سراب.

عاد الموكل، مطأطئ الرأس، يطلب العودة إلى حضن الحقيقة. لكنه لم يتخلَّ عن وهمه تمامًا، فكان لا يزال يحلم بـ20 مليونًا مقابل دراجةٍ لا تساوي شيئًا! يا له من درسٍ عميقٍ في

طبيعة البشر، الذين يفضلون الوهم على الواقع، والسراب على النهر الجاري.

صمت الهاتف: خيانة موكّل ومرارة الثقة

أيها الدفتر الصامت!؛

أعود اليوم أيضا لأخطَّ فيك قصةً جديدةً من حكايات هذه المهنة التي لا تنتهي مفاجآتها. قصةٌ ليست عن خصومةٍ في المحاكم، بل عن خيانةٍ أدمتْ القلب وأرهقت الروح: خيانةُ الأمانة التي تلبّستْ ثوبَ الموكّل، وخيانةُ الثقة التي طالت المحامي.

لقد كانت البداية كأي قضية أخرى: موكّلٌ يلوذ بمكتبي، متهمًا بـخيانة الأمانة. استمعتُ إليه بانتباه، قرأتُ بين السطور، ووزنتُ الكلمات. اتفقنا على الأتعاب، جزءٌ منها يدفع مقدمًا كعادة الحال. لم يتردد، أقرَّ بالمبلغ ووافق عليه، ثم بسّطَ فقط 10% منه. كانت تلك إشارةً مبكرةً ربما، لكنني آثرتُ الظنَّ الحسن، فالكثيرون يمرون بضائقة، وواجب المحامي يقتضي تفهم ظروف موكليه.

وعلى مدار ستة أشهرٍ عجاف، أو أقل قليلاً، رافقتُ هذا الموكّل في رحلته الشاقة بين أروقة المحاكم. من الابتدائية إلى

الاستئناف، كنتُ ظله الأمين، صوته المدافع، وسنده الذي لا يميل. لم يكن الأمر مجرد دفاع قانوني؛ لقد تجاوزتُ دور المحامي لأصبح له طبيبًا نفسيًا يستمع لمخاوفه، يهوّن عليه قلقه، ويُعيد إليه شيئًا من الأمل في كل مكالمةٍ يوميةٍ يتلقاها مني، أو مني إليه. كنت أستقبل مكالماته التي لا تتوقف، أجيب عن تساؤلاته التي لا تنتهي، أشدّ من أزره في كل جلسة، وأبثّ فيه الطمأنينة التي غادرت روحه. بذلتُ من وقتي وجهدي وفكري ما يفوق حدود الواجب المهني، إيماناً مني بأن قضية الموكل هي قضيتي، وأن أمانتي تقتضي أن أكون كلّه.

وبعد هذه الأشهر الطويلة من المرافقة الشاملة، وبعد أن قدمتُ له كل ما أستطيع، وبعد أن أصبحتُ جزءًا لا يتجزأ من يومياته، متى انتهى به المطاف؟ انتهى به المطاف بأن توقّف عن الرد على مكالماتي. صمتَ الهاتف الذي كان يرنّ ليلاً ونهاراً، وصمتَ صمتٌ أثقل من أي كلام. لم يقل كلمة "شكرًا"، لم يقل "وداعًا"، ولم يقل "أنا لن أدفع". فقط الصمت المطبق. إهمالٌ صريحٌ، ونكرانٌ سافرٌ للجميل، وصفعةٌ قويةٌ على وجه الثقة التي منحتها إياه.

يا له من درسٍ قاسٍ، أيها الدفتر! أن تُدافع عن متهمٍ بخيانة الأمانة، لتجد نفسك الضحية النهائية لخيانةٍ أكبر: خيانةٌ ثقتك، وجهدك، ووقتك، وحتى جزء من روحك. لا يزال السؤال يتردد في ذهني: كيف يمكن لنفس بشرية أن تتعمد هذا الجحود؟ أن تستنزف الآخر حتى آخر قطرة، ثم تتوارى خلف ستار الصمت، وكأن شيئًا لم يكن؟

هذه المرة، لم يكن الأمر يتعلق بخسارة قضية، بل بخسارة إيمانٍ ما ببعض البشر. ومع ذلك، تبقى المبادئ راسخة. واجب المحامي أن يؤدي أمانته، حتى لو كان الثمن باهظًا، وحتى لو كانت النفوس التي يتعامل معها لا تقدر قيمة الأمانة ولا الوفاء. لكن مرارة هذا الصمت، ستظل محفورةً في ذاكرة هذه اليوميات، تذكّرني بأن خلف كل ملفٍ قانوني، قد تكمن قصةٌ إنسانيةٌ تدمي القلب، وتكشف عن وجوهٍ لا تعرف للعرفان سبيلاً.

بين مطرقة الواقع وسندان الأسطورة

أيها الدفتر الصامت!؛

استمعتُ اليوم في خطبة الجمعة إلى قصةٍ يرويها الإمام، وصفها بـ"الواقعية"، لكنني أنا، بصفة محامٍ، أرى فيها خليطًا من المثالية الساذجة والأخطاء القانونية الفادحة، وإن كانت تحمل في طياتها عبرةً تستحق التأمل.

تدور القصة حول شابٍ فقيرٍ، "ذو خلق"، خطب فتاةً وقدم لها الصداق. ثم يظهر شابٌ غنيٌ "بلا خلق"، يتقدم لنفس الفتاة، فيميل إليه والدها، ناويًا فسخ الخطوبة الأولى. هنا تبدأ العقد القانونية. يطلب الشاب المظلوم استرداد صداقه، فيرفض الأب، ويصل الخلاف إلى المحكمة. الأب ينكر تسلّم المبلغ، والشاب، لعدم امتلاكه دليلاً، يطلب من القاضي أن يأمر الأب بـاليمين الحاسمة. يقسم الأب كذبًا، وتُبرئه المحكمة الدنيوية.

يا له من سيناريو! كمحامٍ، أتوقف عند عدة نقاط. أولاً، في معظم الأنظمة القانونية، عقد الخطوبة لا يُلزم برد الصداق بالكامل إلا في حالات محددة، والأصل فيه أنه هدية. ثانيًا، مسألة

اليمين الحاسمة ليست بهذه البساطة، ولها شروط وضوابط صارمة، ولا تُطلب بهذه السهولة من القاضي، خاصة إذا كان هناك إنكار. فهل اكتفى القاضي بطلب اليمين دون محاولة استجلاء الحقيقة بسبل أخرى؟ وهل يعتبر إنكار الأب في المحكمة دليلاً قاطعًا لدرجة طلب اليمين مباشرةً؟ هذه نقاط إجرائية وقانونية تُغفلها القصة لتبسيط الحبكة.

يخرج الشاب متحسرًا، يردد "حسبي الله ونعم الوكيل"، بينما يخرج الأب مسرورًا بـ"انتصاره" القضائي. وهنا يأتي الجزء الذي يضفي على القصة طابعها الأسطوري: موت الأب وابنته لاحقًا بمرض السرطان في الكبد، كعقابٍ إلهيٍ على الكذب ونكران الحق.

تحدثتُ في الأمر مع صديقي المقرب، عمر. كنتُ أركز على الأخطاء المسطرية والقانونية، وعلى "أسطورية" هذه النهاية التي لا تمت للواقع بصلة من الناحية السببية المباشرة. ولكن عمر، كعادته، دفعني للتفكير بعمقٍ أكبر. قال: "يا صديقي، الأهم في هذه القصة ليس تفاصيلها القانونية المعوجة، ولا حتى حقيقة

العقاب الإلهي المباشر الذي لا ندركه. الأهم هو دلالتها ورمزيتها".

أدركتُ ما يقصد. القصة، وإن شابها الكثير من الثغرات القانونية والمنطقية، إلا أنها تُرسخ مبادئ أسمى من مجرد كسب قضية. إنها تتحدث عن الصدق، عن الالتزام بالوعود، وعن أن هناك محكمةً أعدل من محاكمنا الدنيوية، هي محكمة الضمير الإلهي، التي لا تُخدع باليمين الكاذبة ولا تُغفل الأدلة الخفية. قد تكون خرافةً من الناحية القضائية، لكنها حكمةٌ من الناحية الأخلاقية. وربما كانت هذه هي الغاية الحقيقية للإمام من روايتها.

الإنتظار: فلسفة زمن غامض على أجنحة العدالة

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم، أيها الدفتر، لا أخطُّ لك مجرد أحداث يوم، بل تأملاً في جوهر الزمن الذي يحكم مهنتنا، مهنة المحاماة. إن حياتنا هنا، كـ محامين، ليست سوى سلسلة من حالات "الانتظار". انتظارٌ يتجاوز كونه مجرد فعل سلبي، ليتحول إلى حالة وجودية، فلسفةٌ صامتةٌ تُشكل وعينا وتُعيد تعريف صبرنا.

كم مرة علّقت آمال موكلي، ومعها آمالي، على "قرار قضائي" لم يصدر بعد؟ في تلك اللحظات، يتحول الزمن إلى مادة لزجة، تتباطأ دقات الساعة، وتتراقص الثواني على إيقاع الترقب. ليس الانتظار هنا فراغًا، بل هو امتلاءٌ بالتوقعات، بالاحتمالات، وبكل السيناريوهات الممكنة التي نسجتها في ذهني. إنه إيمان عميق بأن العدالة، وإن كانت بطيئة، ستجد طريقها في النهاية.

وكم من مرة وقفتُ على أعتاب "تنفيذ حكم"، أرى فيه ليس مجرد إجراء قانوني، بل تتويجًا لرحلة شاقة، وإعادة لبوصلة الحق

إلى مسارها. في هذه اللحظة، يصبح الانتظار جسرًا بين العدالة النظرية والعدالة الواقعية، بين ما سُطر في الأوراق وما يجب أن يتحقق على الأرض. إنه تأكيد على أن الصبر ليس ضعفًا، بل قوة دافعة لتحقيق الإنصاف.

وحين أتهيأ لـ"سفرية" إلى مدينة أخرى، أو أستعد لـ"النيابة في ملف كبير" يفتح أمامي عالمًا جديدًا من التحديات، يتحول الانتظار إلى مرحلة تحضير وتأهب. إنه ليس مجرد وقت يمر، بل فترة تتشكل فيها الاستراتيجيات، وتتضح الرؤى. أُعيد ترتيب أفكاري، أُراجع حججي، وأستجمع طاقتي، إدراكًا مني بأن كل لحظة انتظار هي فرصة للنمو، للتعلم، ولترسيخ أركان قضيتي.

أيها الدفتر، إن فلسفة الانتظار في حياتي كـ محامٍ تُعلمني الكثير عن الزمن نفسه. تعلمني أن الزمن ليس مجرد خط مستقيم، بل هو دائرة تتداخل فيها اللحظات، وتتشابك فيها الآمال بالواقع. تعلمني أن الصبر ليس سكونًا، بل هو ديناميكية داخلية تُعيد تشكيل فهمنا للقدر، وللدور الذي نلعبه في إرساء دعائم العدل.

في كل مرة ننتظر فيها قرارًا، أو تنفيذًا، أو بداية ملف جديد، فإننا لا ننتظر مجرد حدث، بل ننتظر تجلي العدالة، وتأكيد

الإنسانية، وتعميق إيماننا بأن لكل شيء وقته، وأن لحظة الانتصار، وإن تأخرت، ستشرق حتمًا من رحم الانتظار.

هذا هو تأملي اليوم، أيها الدفتر الصامت، في فلسفة زمن غامض على أجنحة العدالة.

ميراثٌ وتشابك المصائر

أيها الدفتر الصامت!؛

أخطُّ لك تفاصيل يومٍ آخر في مكتب المحاماة، وتحديدًا فيما يخص قضية "ورثة الإخوة الأشقاء". هذه القضية، التي بدأت كنزاع عادي على تركة، اتخذت منحىً دراميًا كشفت عن الكثير من الخبايا والتعقيدات، وأظهرت كيف يمكن للمال أن يغير النفوس ويُشتت الأسر.

القضية تتعلق بإرث ضخم تركه المرحوم، وكان من المفترض أن يُقسم بين إخوته وأبنائهم. كان الراحل شخصية معروفة في الجنوب الشرقي، وترك وراءه ممتلكات متنوعة تتضمن عقارات، أسهمًا في شركات، وحسابات بنكية كبيرة. منذ البداية، بدت الأمور معقدة بشكل غير متوقع. كانت هناك خلافات كثيرة بين الورثة حول قيمة بعض الأصول، وبعضهم اعترض على تقييم الخبراء، بينما نشبت نزاعات أخرى حول كيفية توزيع هذه الأصول، مع رغبة كل طرف في الحصول على الجزء الأكبر والأكثر قيمة.

مع مرور الوقت، ومع تعمقي في الملفات والوثائق التي تجمعت في مكتبي، بدأت تظهر مؤشرات غير طبيعية. كانت هناك بعض الوثائق التي أثارت شكوكي حول صحتها وتوقيعات بعض الأطراف. وبعد مراجعة دقيقة لكل تفصيلة، وبالتعاون مع الجهات المختصة في الشرطة القضائية، تم الكشف عن عمليات "تزوير" ممنهجة في بعض المستندات المتعلقة بالتركة. لم يكن الأمر يتعلق بخطأ بسيط، بل بعملية تزوير محكمة تهدف إلى تغيير حصص الورثة والتلاعب بالقسمة.

هذا الاكتشاف قلب الطاولة رأسًا على عقب. لم تعد القضية مجرد نزاع مدني على إرث، بل تحولت إلى قضية جنائية خطيرة تتعلق بالتلاعب بالحقوق والاحتيال. ونتيجة لذلك، صدرت أحكام قضائية بـ"سجن بعضهم" ممن ثبت تورطهم في هذه العمليات الجنائية بعد محاكمات طويلة شهدت تقديم الأدلة الرقمية وشهادات الخبراء. لقد كان مشهدًا محزنًا ومؤلمًا أن ترى أفرادًا من نفس العائلة، كانوا يتشاركون الدم والنسب، ينتهي بهم المطاف خلف القضبان بسبب طمعهم وجشعهم المفرط.

أما "البعض الآخر" من الورثة، فلم يتورطوا بشكل مباشر في عمليات التزوير، لكنهم انغمسوا بشكل كلي بـ"البحث عن الثروة" بكل الطرق المتاحة لهم، سواء كانت قانونية أو أخلاقية. رأيتهم يتصارعون بشدة على كل قطعة أرض، وعلى كل سهم في الشركة التي تركها المرحوم، وكأنهم غرباء لا يربطهم دم أو نسب. انشغلوا بالبحث عن كل درهم يمكنهم الحصول عليه، حتى نسوا معنى الأخوة، وتلاشى بينهم الاحترام والمودة، وتفككت أواصر قرابة كانت تبدو في السابق صلبة.

اليوم، شهدت المحكمة جلسة جديدة في هذه القضية التي لا تزال فصولها تتوالى، لمتابعة إجراءات تنفيذ الأحكام الصادرة بحق المتورطين في التزوير، وضمان استرداد الحقوق لأصحابها الشرعيين. كما ناقشنا بعض النقاط المتعلقة بحصة باقي الورثة، الذين ما زالوا يتصارعون على ما تبقى من الإرث، في محاولة لإنهاء هذا النزاع الطويل والمعقد.

إن هذه القضية، أيها الدفتر، تُظهر بوضوح كيف يمكن للمال أن يفسد النفوس ويُدمر العلاقات الأسرية. لقد انتهت رحلة الإرث لبعضهم بالسجن، وللبعض الآخر بالانغماس الكامل في

سباق لا ينتهي خلف الثروة، تاركين وراءهم أطلال علاقات عائلية كانت يومًا مصدر قوة. إنها تذكرة دائمة لي بمدى هشاشة الروابط الإنسانية أمام بريق المادة.

شهية الروح وصخب العدالة

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم، أيها الدفتر، لا أدوّن لك حدثًا قضائيًا، بل تأملاً في لحظة يومية عابرة، لحظة تحمل في طياتها فلسفة عميقة لمهنتنا: "وجبة المحامي، وجبة فطور فقط قبل شروق الشمس لأنه بعد بداية الجلسات على الساعة 9 صباح تكون الشهية مقفلة". إنها ليست مجرد عادة غذائية، بل هي مرآة تعكس صخب الروح، وطبيعة الزمن الذي نحيا فيه داخل ردهات العدالة.

فما معنى أن تكون وجبة فطورك هي الوحيدة التي تتقبلها النفس؟ إنها إشارة مبكرة، قبل أن تستيقظ المدينة تمامًا، وقبل أن تشرق الشمس بوهجها الكامل، إلى أن هذا الفجر الهادئ هو الملاذ الأخير لسلام البدن وراحة النفس. في تلك السويعات الأولى، حيث لا يزال العالم غارقًا في غفوته، أجد نفسي جالسًا، أتناول هذه الوجبة المتواضعة. إنها ليست فقط لإشباع الجوع الجسدي، بل هي محاولة أخيرة لجمع شتات النفس، لتغذية الطمأنينة، قبل أن ينفجر يومٌ جديدٌ من التوتر والمواجهة.

فماذا يحدث بعد "الساعة 9 صباح"؟ تبدأ الجلسات، وتُفتح أبواب المحاكم، ويتحول الصمت إلى ضجيج. تتدفق القضايا، تتصارع الحجج، وتتضارب الأقدار. في تلك اللحظة، تنغلق الشهية، ليس فقط للطعام، بل ربما لراحة البال أيضًا. تصبح المعدة عقدة عصبية، واللسان أداة للدفاع والهجوم، وتتحول العيون إلى ماسحات ضوئية تبحث عن الثغرات في أقوال الخصوم. كل ما يتعلق بالجسد يتقهقر أمام صرامة الواجب، وأمام ثقل المسؤولية.

إن انغلاق الشهية هذا ليس عارضًا جسديًا بسيطًا، بل هو تجلٍّ فلسفي لسيطرة العقل والروح على الجسد. فكيف يمكن للمرء أن يفكر في الطعام، بينما مصير إنسان معلق بكلمة، أو بحجة، أو بخطأ إجرائي؟ كيف يمكن للمرء أن يشعر بالجوع، بينما ضميره مثقل بعبء الدفاع عن مظلوم، أو السعي وراء حق مغتصب؟ يصبح الجسد مجرد وعاء للطاقة، يُستهلك في معركة ذهنية شرسة، وتهمل احتياجاته الأساسية في سبيل تحقيق غاية أسمى.

أيها الدفتر، إن وجبة الفطور قبل شروق الشمس، ليست مجرد طقس يومي، بل هي طقس تأملي. إنها اللحظة الوحيدة التي أمتلك فيها ذاتي بالكامل قبل أن أُسلّمها لصخب العدالة ومتطلبات المهنة. إنها تذكير بأن هذا الصمت الذي يسبق الضجيج، وهذا الهدوء الذي يسبق العاصفة، هو ما يغذي الروح، ويهيئها لمواجهة ما ستلقيه عليها ردهات المحكمة.

وبعد الساعة التاسعة، عندما تُقفل الشهية، لا يبقى إلا شهية واحدة مفتوحة: شهية تحقيق العدالة.

حكاية خيالية

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم أفتح لك صفحاتي، لا لأخط تفاصيل قضية خيالية عابرة، بل لأودع بين طياتك سرًا أثقل كاهلي، وحكايةً تجاوزت في غرابتها كل ما ألفته في دهاليز المحاكم. إنها ليست مجرد ذكريات محامٍ، بل هي رحلةٌ إلى أعماق النفس البشرية، حيث تتراقص الأقنعة وتتهاوى الحقائق أمام أعيننا. لطالما ظننتُ أنني رأيتُ كل وجوه الخيانة والجشع، لكن ما سأكشفه لك الآن يفوق كل تصور، ويجعل المرء يتساءل: هل ما عشناه كان واقعًا أم مجرد كابوسٍ نسجه القدر؟

تتراقص الكلمات الآن على أطراف قلمي، محاولةً أن ترسم صورة واضحة لشخصيةٍ جمعت بين النقيضين: قناع الأمانة ولسان الأفاعي. شخصيةٌ بدت لي، ولغيري، كقنديلٍ يضيء دروب العدالة بوعظه ونصحه، لكنه يخفي خلفه ظلامًا حالكًا من الجبن والجشع. كيف يمكن لمن يدعي الشرف أن يطعن في الظهر؟ وكيف لمن يدعي النصح أن ينسج خيوط المكائد؟

ما ستقرؤه ليس مجرد سطور، بل هو فصولٌ من حكايةٍ مريرة، ستتجلّى تفاصيلها الصادمة أمامك في ثلاث حلقات متتالية.

في الحلقة الأولى، سنغوص معًا في دهاليز الخيانة التي تلبستْ ثوبَ الصداقة، لنكشف كيف يمكن لسمسرة الضمائر أن تتسلل خلسةً، وتلوث أنبل المهن.

أما في الحلقة الثانية، فسنشهد على مشهدٍ مؤلمٍ تتراقص فيه قبح النفوس على أنقاض العزاء، وحيث يتجاوز الجشع كل خطوط الإنسانية الحمراء.

وفي الحلقة الثالثة والأخيرة، سينكسر القناع، وتُكشف الحقيقة المؤلمة، لنجابه خيبة العدالة التي لا ترحم، ونرى كيف تتهاوى أوهام الشرف أمام صفعات الواقع.

فكن مستعدًا أيها الدفتر الصامت، فإن ما سأبوح به لك هو صرخةُ ضميرٍ، وحقيقةٌ مؤلمة، أرجو أن تكون عبرةً لمن يعتبر. إنها حكايةٌ ربما لم تُكتب بعد في سجلات المحاكم، لكنها محفورةٌ في ذاكرة القلب.

اليومية الأولى لحكاية خيالية:
قناع الأمانة ولسان الأفاعي

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم أخط لك فصلاً جديدًا من فصول المحكمة الكبرى للحياة، حيث تتجلى غرابة البشر وواقعية القانون. قصةٌ ليست عن خصومةٍ في المحاكم، بل عن خيانةٍ أدمت القلب وأرهقت الروح: خيانةُ الأمانة التي تلبّستْ ثوبَ الموكل، وخيانةُ الثقة التي طالت المحامي. لطالما آمنتُ بأن قاعة المحكمة هي ساحةٌ للخصوم، لا لمن يفترض بهم أن يكونوا سندًا، وأن المبادئ المهنية خطٌ أحمر لا يتجاوزه إلاّ عديمُ الذمة.

لقد كان هناك "الأنا الآخر" لطالما التقيناه في ردهات المحاكم، وكلامه هو الجدية والوضوح والأمانة. يظهر بمظهر المرشد والنصوح، كقنديلٍ يضيء دروب العدالة، لكنه يخفي خلفه جبنًا وجشعًا لا يصدقان. لم يمر وقت طويل على هذه اللقاءات والادعاءات، حتى وقعت حادثة سير مروعة لسيارة كانت تقل العشرات من الضحايا. وبحكم عملي وجهدي،

حظيت بنصيب الأسد من هؤلاء الضحايا، كصيادٍ بارعٍ يجمع غنائمه بعد عاصفة.

وما أن علم هذا "الأنا الآخر" بالأمر، حتى جمع ثلة من الأشخاص، ليس لمواساتي أو التعاون معي، بل ليقول لهم بأنني "عديم الأمانة " وينعتني بأقبح الأوصاف. والأدهى من ذلك كله، أنه لم يقدر أن يواجهني بذلك، مفضلاً النميمة والوشاية خلف الكواليس، كذئبٍ يتخفى في عباءة الليل ليطعن من الخلف. والحقيقة، أيها الدفتر الصامت، أن الضحايا السبعة الذين كنت أنوب عنهم، كانوا كلهم من معارفي الخاصة ومعارف معارفي، ولم أتدخل يومًا ما لطلب استدراج موكل ما إلى مكتبي، فمكتبي ليس سوقًا تُقام فيه المزادات.

لقد آثرتُ ضميري المهني على عواطفي الشخصية، وغضضت الطرف عما كان يقوله عني، مصداقًا لقوله تعالى "واعرض عن الجاهلين". لم أبحث عن الشكر أو المال في تلك اللحظة بقدر ما بحثت عن إقامة العدل، وهذا هو جوهر عملنا، أيها الدفتر، أن تكون نصيراً للحق، حتى لو كانت النفوس التي تدافع عنها لا تعرف معنى العرفان. فكم كان شعوري بالسعادة

عظيمًا وأنا أرى الحق يعود إلى أهله، حتى وإن كان صاحب الحق نفسه جاحداً ناكراً. هذه النهاية، وإن كانت مؤلمة على الصعيد الشخصي، إلا أنها عززت في داخلي قناعة راسخة: إن المحاماة ليست تجارة للمشاعر، بل رسالة حق وعدل.

اليومية الثانية للحكاية الخيالية: الجشع يتراقص على أنقاض العزاء

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم أخطُّ لك مرارةً لم تعتدها صفحاتك، ودرسًا قاسيًا في دهاليز هذه المهنة الشريفة. لقد ظننت أنني رأيت كل شيء في عالم الغدر والجحود، لكن ما حدث مؤخرًا كشف لي عن مستويات جديدة من الدناءة تتجاوز حدود العقل والضمير، كزلزالٍ يهز أركان الثقة.

مرت الأيام، وبالتحديد سنة تقريبًا على تلك الأقاويل والنميمة، لتقع فاجعة جديدة: حادث سير مميت أودى بحياة والد صديقي المقرب. وفي يوم الفاجعة، عندما كان الحزن يخيم على الأجواء كعباءةٍ سوداء، تقدم الأنا الآخر للمكلف بمستودع الأموات. لم يكن هدفه مواساة صديقي أو تخفيف مصابه، بل كان يصر ويرشد صديقي إلى ذلك الأنا الآخر الذي يتبجح بالأخلاق والشرف، والذي ادعى سابقًا أنني "عديم الأمانة". كان

ظل الإنسان هذا كبومةٍ تنعق فوق رأس الميت، تبشر بالجشع لا بالعزاء.

بحكم الوضع النفسي الصعب الذي كان يمر به صديقي، لفقدان والده، طلب من الوسيط أن يمهله أسبوعًا ليرتاح ويسوي وضعه القانوني، ووعده بالاتصال لاحقًا. ولكن الجشع لا يعرف حرمة للموت أو للحزن. فبعد يومين فقط من الفاجعة، تقدم هذا الأنا الآخر "النصوح" إلى منزل صديقي، متسللاً كاللص إلى بيت مكلوم. لم يكتفِ بذلك، بل اتصل بصديقي هاتفيًا ليقدم له واجب العزاء، مؤكدًا أنه سيتدبر الأمر في المحكمة، وأنه "الناصح الأمين" وسيعجل بالأمر، كمن يقدم سمًا في كأس عسل. وليس هذا فحسب، بل زعم أن وسيطه سيقوم بتسليمه تسبيقًا لمعاونته على العزاء، وكأن مصاب صديقي هو فرصة لتحقيق مكاسب مادية، وليمة تُقام على مائدة الحزن.

في ذات اليوم، لم يتمالك صديقي نفسه، واتصل بي وقلبه يعتصره الألم، قائلاً: "هل الأمر وصل عندكم إلى هذا الحد؟ وهل الجشع وعدم احترام حرمة الميت تجعل الأمر مسألة الأموال أولى من أي شيء؟". تدخلتُ حينها لتصحيح الفكرة، مؤكدًا أن

الشرفاء لا علاقة لهم بهذا التصرف المشين، وقلت له أن يدع الأمر ويتجاهله، وكأنها رياحٌ عابرة لا تستحق التوقف عندها. وهو ما فعله صديقي بالفعل، فقد أدرك دناءة الموقف.

هذه المرة، لم يكن الأمر يتعلق بخسارة قضية، بل بخسارة إيمانٍ ما ببعض البشر. فكيف يمكن لنفس بشرية أن تتعمد هذا الجحود؟ أن تستنزف الآخر حتى آخر قطرة، ثم تتوارى خلف ستار الصمت، وكأن شيئًا لم يكن؟ إنها تذكرة دائمة لي بمدى هشاشة الروابط الإنسانية أمام بريق المادة.

اليومية الثالثة للحكاية الخيالية: انكسار القناع وخيبة العدالة

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم أدوّن لك حدثًا قضائيًا، ليس مجرد إجراء روتيني، بل لحظة كشفت عن وجهٍ آخر، قناعٍ سقط ليُظهر حقيقة صادمة. في قاعة المحكمة، حيث تتجسّدُ فصولُ الدراما الإنسانية، كنت على موعد مع نهاية مؤلمة لقصة بدأت بالجشع وانتهت بالعار. كان المشهد كلوحةٍ زيتيةٍ باهتة، تُظهر قصة خيبة أملٍ كبيرة.

جاءت المفاجأة الكبرى في جلسة المحاكمة، عندما تفاجأت بأن "الأنا الآخر النصوح" الذي حاول استغلال مصاب صديقي، قد حضر عن ورثة الضحايا، على الرغم من أن صديقي كان قد رفض تكليفه بالأمر، وفضل أن يكلفني أنا بالنيابة عنهم لثقته السابقة بي، كأنني الدرع الذي يحميه. هذا الموقف أكد لي أن الأمر تجاوز مجرد المنافسة المهنية، ليدخل في حيز الدناءة والابتزاز الرخيص، كصفقةٍ تُبرم في دهاليز الظلام.

عندما دخلت القاعة متأخرًا لأقدم نفسي لرئيس الجلسة لوضع النيابة في الملف، تقدم هذا "الأنا الآخر" هو الآخر إلى الرئيس. لم يكن ليعتذر أو يبرر فعلته، بل طلب سحب نيابته من الملف بحجة واهية: وجود خطأ في اسم الضحايا، كأنها محاولة يائسة للاختباء خلف ستارةٍ شفافة. وهو ما استجاب له الرئيس. ولكن أيها الدفتر، الأنا الأخر عادة لا يخطئ في أسماء موكليه، خاصة عندما يكون الحديث عن مجموعة من الورثة، فالمسألة تتطلب دقة واحترافية لا غبار عليها. كان هذا التصرف مجرد محاولة يائسة للتغطية على محاولة فاشلة لاصطياد موكل،

وللتهرب من مواجهة الحقيقة، كقزمٍ يحاول أن يختبئ خلف ظل عملاق.

لقد خرج موكلي من مكتبي في موقف سابق، تاركًا خلفه فراغًا مؤلمًا ودرسًا قاسيًا. درس بأن الثقة في عالمنا قد تكون أحيانًا عملة نادرة، وأن بعض الذئاب تلبس ثياب المحسنين، وتتخذ من "الخير والإحسان" ستارًا لغايةٍ دنيئةٍ وشائنة. هذا هو الأنا الآخر"النصوح"، الذي يترامى على أموال غيره، ويسومر باسم الأمانة والشرف والكرامة، كتاجرٍ يبيع الضمائر في سوق النخاسة.

بالرغم من مرارة هذا الصمت، ستبقى المبادئ راسخة. واجب الأنا الآخر أن يؤدي أمانته، حتى لو كان الثمن باهظًا، وحتى لو كانت النفوس التي يتعامل معها لا تقدر قيمة الأمانة ولا الوفاء. لقد آثرتُ ضميري المهني على عواطفي الشخصية، وكان هذا هو الانتصار الحقيقي.

قيود الأجنحة وعزلة الفجر

أيها الدفتر الصامت!؛ اليوم أخط لك تعليقًا مطولاً على مقال كتبه أحد زملائي، مقال لم يأتِ بجديد على مائدة تجربتي، لكنه جاء ليؤكد، بوضوح مؤلم، واقع مهنتنا، مهنة المحاماة، التي تبدو وكأنها بلا عطلة حقيقية. وكأن قدرها أن تظل على أهبة الاستعداد الدائم، على عكس باقي المهن والوظائف التي تتمتع بنعمة العطلة واستراحة العمل دون أي ارتباطات أو التزامات مستمرة تثقل كاهلها.

وكما ذكر زميلي بدقة متناهية، الأستاذ يوقع محضر نهاية السنة، يغلق كتبه، ويغادر حجرات الدراسة ليقضي عطلته في هدوء تام، مستمتعاً بسكون ما بعد العاصفة التعليمية. والشرطي والدركي والجندي، هؤلاء الساهرون على أمننا، يحصلون على عطلتهم، يطفئون هواتفهم التي لا تتوقف عن الرنين خلال أيام العمل، وينعمون بالراحة ويستمتعون بها رفقة الأهل والأحباب، تاركين خلفهم ضجيج الواجب. وكذلك الأجير في القطاع الخاص ينال عطلته السنوية كاملة، ويستمتع بها دون أي

ضغوطات أو التزامات مهنية تثقل كاهله أو تلاحقه في أحلامه. يا له من وصف دقيق لحياة الكثيرين، حياة نتوق إليها أحيانًا!

لكن، وكما أشار الزميل بحق، جملة تختزل مأساة حقيقية: "إلا المحامي، فإنه لا عطلة له". إنها ليست مجرد عبارة عابرة، بل هي حقيقة مريرة نعيشها كل يوم، تتغلغل في تفاصيل حياتنا الشخصية والمهنية. حتى وإن قررنا، كغيرنا من البشر، أن نقتطع بعض الأيام كعطلة في شهر غشت - الشهر الذي يختاره الكثيرون للراحة والاستجمام بعيداً عن صخب المدن - فإننا نبقى متبوعين بالتزامات المكتب التي لا تنتهي ولا تعرف التوقف. جرس الهاتف لا يتوقف عن الرنين، يصبح جزءاً لا يتجزأ من أنفاسنا، وجلسات المحكمة تنتظر حضورنا في مواعيدها المحددة، لا تقبل تأجيلاً ولا اعتذاراً. والآجال الخاصة بالطعون، تلك السكاكين الحادة، تترصدنا في كل لحظة، تذكرنا بأن الزمن لا يتوقف لأحد. ناهيك عن ضرورة إعداد المذكرات والمقالات الاستعجالية التي لا تحتمل التأجيل، فمصير الموكلين معلق بها.

إنها ليست مجرد التزامات وظيفية بحتة، بل هي قيود غير مرئية تكبل أجنحتنا وتمنعنا من التحليق بحرية. فالمحامي، حتى

وهو يحاول الاستمتاع ببعض الأيام كعطلة، "فهاتفه مفتوح ليل نهار". هذه ليست مجرد عبارة مجازية تصف حالاً، بل هي واقع يومي مؤرق؛ فالعملية النفسية للانفصال عن ضغوط العمل تصبح مستحيلة. الاتصالات ترد علينا "كل يوم وكل ساعة"، و"الرسائل المكتوبة والمسموعة على الواتساب" تنهال علينا باستمرار، حاملة معها قلق الموكلين، استفساراتهم، أو حتى مجرد طلبات عاجلة قد تبدو بسيطة لكنها تتطلب انتباهاً فورياً. كيف لنا أن نفصل عقولنا عن القضايا ومصائر الموكلين وهي تلاحقنا في كل مكان، حتى على شاطئ البحر أو في أحضان الجبال؟ إنها أشبه بعزلة روحية مؤلمة، حيث لا نستطيع الانفصال عن عالم المحكمة وقاعاتها وصخبها، حتى ونحن بعيدون عنها جسدياً، وكأن جزءاً من أرواحنا بقي مرابطاً خلف جدران المحكمة.

"كان الله في عون المحامون". نعم، كان الله في عوننا جميعًا، في عون كل زميل يجد نفسه مكبلاً بقيود هذه المهنة النبيلة والشاقة في آن واحد. إن مقال زميلي هذا لم يأتِ بجديد على صعيد المعلومة، بقدر ما جاء ليؤكد واقعًا معاشًا، وليضع كلمات على مشاعر تراودنا جميعًا، مشاعر قد نجد صعوبة في

التعبير عنها بوضوح. إنها مهنة العطاء اللامتناهي، مهنة الدفاع عن الحقوق والوقوف بجانب المظلوم، لكنها في المقابل، تفرض علينا أن نعيش حياة العطلة المؤجلة دائمًا، والراحة التي لا تكتمل أبداً.

ندوب الروح

أيها الدفتر الصامت!؛ اليوم أخط لك تأملاً يلامس أوتار الروح، تأملاً لا يخص ملفاً قضائياً، بل يخص تلك الآلام الخفية التي نحملها كبشر، آلام تتجاوز حدود القوانين والمرافعات. أدرك اليوم أكثر من أي وقت مضى، أننا عندما نفقد عزيزاً، فإننا لن نشعر بالألم والحسرة فقط في لحظة الوفاة والصدمة الأولى، بل سيصبح هذا الشعور رفيقاً لنا طيلة حياتنا، يتجدد عند كل مناسبة جميلة، كل فرحة تلوح في الأفق.

ما زلت أتذكر بوضوح، وكأنها حدثت بالأمس القريب، يوم فقدت فيه زوجة عمي. كانت تلك المرأة الطيبة التي غمرت الجميع بدفئها وحنانها، بمثابة أم ثانية للكثيرين في عائلتنا الممتدة. رحيلها لم يكن مجرد خبر عابر، بل كان فراغاً ترك صدى عميقاً في الروح. والآن، في كل فرحة تتبع ذلك الفراق، سواء كان زواجاً لأحد الأقارب يملأ الدنيا بهجة وزغاريد، أو نجاحاً دراسياً لأبناء العائلة يكلل جهودهم، أو حتى ولادة طفل جديد يبهج القلوب ويعد بمستقبل مشرق، أجد نفسي أتوقف للحظة، أتأمل،

وأتمنى، وبكل جوارحي، لو أنها كانت متواجدة وحاضرة معنا في هذه المناسبات الجميلة. تلك اللحظات السعيدة، التي من المفترض أن تكون كاملة البهجة والنقاء، يتسلل إليها شيء من النقص، ظل خفي يذكرني بغيابها، كأن قطعة من اللوحة لم تكتمل.

كم من مرة وقفتُ في قاعة المحكمة، أراقب عن كثب دموع الفراق في قضايا الميراث التي تتكشف فيها الجراح العائلية، أو أستمع إلى الأنين الصامت في دعاوى الطلاق التي تمزق الأسر. وفي تلك اللحظات، بينما أحاول جاهداً أن أجد حلاً قانونياً لجروح إنسانية عميقة، تتسلل هذه الذكرى الشخصية إلى عقلي. كم مرة شهدت زفاف صديق حميم، أو احتفلت بنجاح كبير لأحد موكلي بعد جهد جهيد في الدفاع عنه، أو ابتسمت لطفل يولد في عائلة كانت غارقة في نزاع مرير انتهى بسلام، وتذكرتُ وجوهاً عزيزة غابت عن هذه الدنيا؟ إنها غصة خفية، شعور بأن جزءاً منك ينقص في لحظة الاكتمال والفرح، إحساس بأن هناك كرسياً فارغاً في مأدبة الحياة.

لهذا، أؤمن حقاً أن الموت يفجع ويؤلم الأحياء أكثر من الأموات. فالراحلون قد وجدوا سلامهم الأبدي، وانتهت آلامهم الدنيوية. أما نحن الأحياء، فنبقى مع هذا الألم، ألم الغياب الدائم الذي لا يبرأ، الكامن في تلك التنهيدة التي تخرج مع كل ذكرى جميلة كان من المفترض أن يشاركها من فقدنا. إنه ليس بالضرورة بكاءً صريحاً أو نحيباً عالياً، بل هو شعور داخلي عميق بالنقص، بالفراغ الذي لا يملؤه أحد. إنها حقيقة إنسانية عميقة لا يغيرها قانون ولا حكم قضائي ولا حتى انتصار في قضية. وفي مهنتنا، التي تتطلب منا قوة وجلداً للتعامل مع آلام الآخرين وقصصهم المأساوية، تظل هذه الندوب الشخصية تذكرنا بأننا، قبل كل شيء، بشر نحمل قصصنا الخاصة من الفقد والحسرة، وأن الألم الإنساني يتجاوز أحياناً كل الأطر القانونية

عاشوراء، وحكاية تربية على قارعة الطريق

أيها الدفتر الصامت!؛ اليوم أخط لك تأملاً جديداً، نابعاً من صدى كلمات زميل لي أثارت في نفسي الكثير من التساؤلات، كلمات نقلت لي مشهداً حياً من إحدى جلسات استنطاق قاضي الأحداث، مشهداً يعكس فصولاً من مآسي المجتمع التي تمر أمام أعيننا في قاعات المحاكم.

لقد تزامنت هذه الذكريات مع اقتراب ليلة عاشوراء، تلك الليلة التي تحولت في السنوات الأخيرة من مناسبة احتفالية إلى مرتع لمظاهر العنف والفوضى في الشوارع. فمع كل ليلة عاشوراء، تعود إلى الأذهان صور إضرام النيران في الإطارات المطاطية، والمواجهات المأساوية بين القاصرين وعناصر الأمن، مشهد يتكرر ككابوس سنوي.

ما رواه زميلي عن جلسة استنطاق أمام قاضي الأحداث بالمحكمة الابتدائية بمراكش، كان صادماً بحق. قاضٍ يستنطق مجموعة من الأطفال القاصرين، تجاوز عددهم العشرة، بعد أن تم الاحتفاظ بهم من طرف الشرطة ووضعهم تحت المراقبة.

هؤلاء أطفال، أيها الدفتر، لا زالوا في مقتبل العمر، يواجهون تبعات أفعال قد لا يدركون عواقبها الكاملة.

لكن ما هزني في تلك الواقعة، هو موقف إحدى الأمهات التي حضرت مع ابنها البالغ من العمر عشر سنوات فقط. حين واجهها السيد قاضي الأحداث بتهمة ابنها المتعلقة بالمشاركة في أعمال عنف وشغب في الشارع، ورشقه للقوات العمومية بالحجارة، خاصة وأن تلك الأفعال وقعت بعد منتصف الليل، بادرها بسؤال جوهري عن دورها في مراقبة ابنها وتربيته. وجاء ردها، الذي لا أستطيع أن أنساه من وصف زميلي: "را مشفتوش نعامس، را كنت عند الجارة تنقادو القريشلات".

تخيل، أيها الدفتر! أم تترك فلذة كبدها في الشارع ليلاً، وفي ليلة مشحونة كليلة عاشوراء، وتختار قضاء وقتها في إعداد الحلويات والقريشلات ببيت الجيران! أي مسؤولية هذه؟ وأي غياب لدور الأبوة والأمومة؟

هذا المشهد، أيها الدفتر، يلخص في عمقه بعض الأسباب الجذرية لهذا الانفلات الذي نراه في مجتمعنا. إنه غياب التوجيه داخل الأسرة، ذلك الكيان الأول والأساسي في بناء شخصية

الفرد. إنه ضياع المسؤولية الأبوية التي يجب أن تكون الدرع الأول للأبناء. وعندما يغيب هذا التوجيه وهذه المسؤولية، يتحمل الأطفال تبعات لا يدركون عواقبها، يصبحون وقوداً لفوضى مجتمعية، وينتهي بهم المطاف أمام القضاء، في حين أن المسؤولية الحقيقية تقع على عاتق من كان من المفترض أن يرعاهم ويحميهم. إنها حلقة مفرغة، نراها تتكرر في قضايا الأحداث، وتذكرنا دائماً بأن القانون وحده لا يكفي لترميم ما أفسده غياب الوعي والمسؤولية الأسرية.

صمت الأجنحة المكسورة

أيها الدفتر الصامت!؛ اليوم جلستُ في محرابي، لا لأطوي صفحة قضية عادية، بل لأواجه شبحاً أسود تركته زائرة في ثنايا روحي. لقد غادرتني امرأة، لكنها لم تترك خلفها سوى ثقلاً من الأسى، وإحساساً عميقاً بمرارة عدالة لا تلامس عمق الجراح الإنسانية الغائرة. زارتني أرملة الفاجعة، فقدت شمس حياتها قبل بضعة أشهر في رقصة موت مروعة على الأسفلت. للوهلة الأولى، بدت لي الرواية كغيرها من حكايات الشارع الملطخة بالدماء، لكن تفاصيلها التي نسجتها بصوتٍ خافت، كانت كخيوط من نار تكشف عن هوة سحيقة من المأساة.

لقد كان زوجها، أيها الدفتر، ضحية غيمة سوداء مرت في لحظة جنون. شابٌ لم يعرف للعهود معنى، ولا للمسؤولية طريقاً، كان يقود دراجته ثلاثية العجلات، كوحشٍ جامح، دون أن يحمل درع التأمين، وفي سكرةٍ عمياء طافحة، وكأن العالم ملكٌ له وحده دون اعتبار لأرواح تتنفس حوله. صادف وجود فقيديها في الشارع، فاندفع نحوه كقذيفة عمياء، صدمه بعنفٍ أخرجه من

إطار الحياة إلى صمت الأبد. أُرْدِيَ قتيلاً في لحظة، لم يمنحه القدر فرصة لصرخة أخيرة، ولا حتى همسة وداع لعشٍ دافئ خلفه.

الرجل الراحل، أيها الدفتر، لم يكن مجرد جسد يسقط، بل كان عالماً كاملاً انهار بغيابه. ترك وراءه أفقاً مظلماً لأرملة لا تملك سوى جدران منزلها وذكريات الأمس، بلا مورد ولا عمل، فكانت نجمة بيته وربه. كما خلف وراءه براعم صغيرة في مقتبل العمر، أطفالاً، يحتاجون لظل أب فقدوه في لحظة جنون، ظل لن تعوضه أي أحكام أو تعويضات مادية، مهما بلغت.

وقد توبع المتهم، هذا الشبح الذي حطم عالماً، من أجل السياقة في سكرٍ يغتال البصيرة، والقتل غير العمد الذي يرتدي ثوب "الخطأ" ليخفي بشاعة الفعل، والفرار الذي يضيف إلى الجرم جبناً. وصدر في حقه حكمٌ، أيها الدفتر، كهمسة باهتة في وجه عاصفة، ثلاثة أشهر حبساً نافذاً في الابتدائي، ثم ستة أشهر نافذة في الاستئناف. ستة أشهر! أيها الدفتر، ستة أشهر مقابل روح أُزهقت، وعائلة تشتتت، ومستقبل أطفال بات معلقاً على خيط رفيع من اليأس. أشعرتني حال هذه السيدة بحزنٍ عميقٍ، كحجرٍ

ثقيلٍ استقر في صدري، إذ وجدت نفسها فجأة تقف على حافة الهاوية، أمام أعباء ثقيلة ومسؤوليات جسيمة تجاه أطفالٍ تتزايد احتياجاتهم يوماً بعد آخر، وحياتها انقلبت كصفحةٍ مُهملة في كتاب.

لقد تأسفتُ حقاً للبس في هذا التصنيف القانوني الذي يضع إزهاق الأرواح في مثل هذه الظروف تحت مظلة "القتل الخطأ"، وكأن الحياة البشرية التي تزهق نتيجة تهور كهذا ليست جوهرة ثمينة تستدعي عقوبة تضيء ظلمة العدالة وتنير طريق الردع. وأسفتُ أكثر للعقوبة المحكوم بها، التي لا تعكس بأي شكل من الأشكال جسامة الفعل، ولا حجم الإهمال واللا مبالاة من الفاعل. ستة أشهر... ثم يعود إلى حياته، كأن شيئاً لم يحدث، بينما عائلة بأكملها تدفع ثمن هذا الجنون، تتجرع مرارة الكأس وحدها.

وما زاد من ألمي، أيها الدفتر، أن هذه المرأة المكلومة ستضطر إلى سلوك مسطرة قضائية طويلة، مسارٌ شائك كطريقٍ صحراوي، من خلال مقاضاة المتسبب في الحادثة وصندوق ضمان حوادث السير، في رحلة قد تستغرق سنواتٍ من الانتظار

المرير في أروقة المحاكم. وربما، وهذا هو الأكثر إيلاماً وخشية، لن ينتهي بأي تعويض يُذكر يعينها على مواصلة الحياة بكرامة، تعويض قد لا يكون أكثر من سراب في صحراء قاحلة. إنها عدالة ناقصة، تضع على كاهل الضحية عبئاً إضافياً من المعاناة والألم، وكأنها تطلب منها أن تحمل السماء فوق رأسها بعد أن فقدت سندها.

همس الشك وظلال الحقيقة

أيها الدفتر الصامت!؛ اليوم، بينما أطوي صفحات ملفاتي، وجدتُ نفسي غارقاً في تأملٍ أعمق، لا يخص قضية بعينها، بل يمس نسيج العدالة ذاته، ويفكك خيوط الوعي العام الذي ينسج أحكامه قبل أن ينطق بها الميزان. لقد طرق سمعي، وأوجع روحي، ما يُقال حول أستاذٍ جامعيٍ بارز، كان مناراً للعلم، ومنسقاً لماستر الدراسات الجنائية في صرحٍ جامعيٍ كبير. هذا الماستر الذي أهدى للوطن كل عام كوكبةً من العقول النيرة، تخرجوا حاملين شعلة المعرفة.

ما يحدث الآن لهذا الأستاذ، أيها الدفتر، هو رقصةٌ بشعةٌ لظلال الشك. فبينما لا يزال يتمتع بعباءة البراءة، هذه القرينة المقدسة التي تحميه حتى يتبين الخيط الأبيض من الأسود، وقبل أن يصدر في حقه حكمٌ قضائيٌ نهائيٌ يحوز قوة الأمر المقضي به، ارتفعت أصواتٌ، كعاصفةٍ هوجاء، لم تكتفِ بالتشكيك في سلوكه، بل تجاوزت ذلك إلى إصدار أحكامٍ قطعية، بلغت حد التهكم والاتهامات التي لم يبرهنها القضاء بعد. إنها محاكمةٌ

شعبيةٌ، تُقام على مسرح الشائعات، وحكمٌ يصدر من أفواهٍ لا تعرف قيد القانون.

والخطير، أيها الدفتر، أن هذه الموجة الظالمة لم تتوقف عند الشخص المعني. لقد امتدت كسرطانٍ خبيثٍ، لتلتهم سمعة كافة خريجي الماستر الذي كان يشرف عليه. فجأة، طالتهم شبهات الرشوة والمحسوبية، وجرى التشكيك في مصداقية شواهدهم العلمية، كأن سحابةً سوداء خيمت على سنواتٍ من الجد والاجتهاد. أيها الدفتر، لا سند ولا دليل لكل هذا الافتراء! إنها سهامٌ مسمومة تُلقى جزافاً، فتصيب الأبرياء في صميم كفاءاتهم.

بل إن بعض هذه الأصوات العمومية ذهبت أبعد من ذلك، لتُعمّم الاتهام على جميع حاملي الشهادات العليا. أصبحت الدبلومات تُنعَت بـ"تحت الطلب"، والعلاقات تُتهم بالزبونية والمحسوبية، في موقفٍ لا هو منصفٌ، ولا هو يستند إلى وقائع مثبتة، بل هو ضربٌ من جلد الذات الجماعي.

إن ما يُنشر حول الأستاذ الموقوف، وحول خريجي هذا الماستر، في غياب أحكام قضائية نهائية، أو أدلة ملموسة تزن الحق، يعكس ضعفاً مروعاً في الوعي القانوني. إنه نقصٌ فادحٌ

في الموضوعية، واندفاعٌ أعمى نحو التسرع في إصدار الأحكام. فالقضاء وحده، أيها الدفتر، هو الميزان الذي يزن، وهو المنارة التي تهتدي بها الحقيقة، وهو المخول قانوناً بالحسم في التهم المنسوبة. وأحكامه هي وحدها عنوان الحقيقة التي لا تقبل الجدل.

أما بخصوص خريجي هذا الماستر الذي كان يشرف عليه المعني بالأمر، فالأصل الراسخ في ضمير القانون والعدالة هو أنهم نالوا شهاداتهم عن جدارة واستحقاق، بعد سنواتٍ من البحث والدراسة والتفوق. وأي ادعاء بخلاف ذلك، أيها الدفتر، يتطلب الإثبات بالدليل القاطع، لا الاتهام المجاني الذي يلقى في الفضاء العام كحجارة عمياء. إن الطعن في كفاءات عشرات الطلبة الذين تخرجوا من هذا الصرح التعليمي، دون سند منطقي أو برهان، يُعد إجحافاً في حقهم، وتدميراً لسنواتٍ من بناء المستقبل. إنه لأمر يدمي القلب، أن تتحول قناعة البراءة إلى مجرد همسٍ ضعيف، بينما يرتفع صوت الشك عالياً، كصرخةٍ في وادٍ بلا صدى.

عبث القدر في قاعة الانتظار

أيها الدفتر الصامت!؛

اليوم، شهدتُ فصولاً من مسرحية عبثية، تتراقص فيها الأقدار على خشبة القنصلية الأمريكية. بعد أن ألقيتُ خلفي غبار المحكمة التجارية وصخبها، انطلقتُ كسهامٍ نحو موعدٍ بدا وكأنه بوابة لعالمٍ آخر، في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، حاملاً في جيبي أمنية تأشيرة.

دخلتُ تلك القلعة الزجاجية، وقلبي ينبض بإيقاعٍ متسارعٍ، لكن عيني كانت غائمة بحقيقةٍ غريبة: لم أكن أنا من خطّ مصيري على تلك الأوراق الرسمية. يدٌ أخرى، مقابل ثمنٍ بخسٍ، نسجت خيوط كذبٍ بيضاء، أضافت للغاتي المعروفة – العربية والفرنسية – عباءة الإنجليزية، التي لم أكن أملك منها سوى بضع كلماتٍ متناثرة.

اخترتُ لغتي الأم، العربية، ظنًا مني أنها سفينتي الآمنة في هذا المحيط الغريب. وعندما حان دوري، تقدمتُ نحو ذلك الممثل القنصلي، الذي بدا وكأنه حارسٌ على أبواب الأحلام.

سلمته جواز سفري وصورتي، وهما شاهدان صامتان على هويتي، فإذا به يطلق سؤالاً كالصاعقة: "أنت تتحدث الإنجليزية أيضًا، فلماذا اخترت العربية؟" وكأن الكلمات الإنجليزية تدفقت من فمه كنهرٍ جارفٍ، أغرق صمتي وتوتري.

حاول الموظف أن ينتشلني من غياهب صمتي، قائلاً: "تحدث معي قليلاً بالإنجليزية." لكن لساني تجمد، وكأن عقدةً خفيةً ربطته. ثم جاء السؤال الوحيد الذي اخترق حاجز الصمت، ووصل إلى مدارك فهمي: "ما وجهتك في الولايات المتحدة الأمريكية؟" لم أجد أمامي سوى كلمة واحدة، أطلقتها كصرخةٍ في وادٍ سحيق: "تكساس!"

ابتسم القنصل ابتسامةً عريضة، حملت في طياتها مرارة السخرية، وقال لي: "لو سكت لكان خيراً لك! في تكساس يجثم الفيضان، وأبوابها موصدةٌ حاليًا." ثم ألقى عليّ بعبارة "حظ موفق"، التي كانت كالصفعة الأخيرة، وأعاد لي وثائقي التي أصبحت رمزاً لرفضٍ قاسٍ. وهكذا، أغلقت أبواب الحلم، وبقيتُ وحيداً مع عبث القدر في قاعة الانتظار.

بين صخب الأفراح وصمت المقابر

أيها الدفتر الصامت،

اليوم، تتشابك خيوط الزمن في داخلي، لا لتنسج مجرد لوحة كئيبة، بل لترسم في قماش روحي ملحمة حزينة تتردد أصداؤها في كل نبضة من نبضات قلبي. إنها حكايةٌ محفورة بدموع الألم الصامت وصيحات الفقد المكتومة، حيث توالت الأقدار كصفعات متتالية، تسحب معها أربع أرواح كانت تضيء سماء أيامي كقناديل مضيئة. إنهم ليسوا مجرد أرقام تُضاف إلى سجل الموتى، بل هم نجومٌ هوت من كوكبة وجودي، تاركين خلفهم فراغًا لا يمكن أن يملأه الزمان، فراغًا يتردد صداه ليس فقط في أروقة ذاكرتي المتهالكة، بل في عمق روحي.

زوجة عمي، تلك الروح النقية التي كانت كالنبع الصافي يروي ظمأ العطاشى، كانت نبراسًا من الحكمة يضيء دروبي المظلمة، صوتها كان كترنيمة تبعث الطمأنينة في القلوب، ومع رحيلها، خيم الظلام على زاوية من زوايا بيتي. ومؤذن القرية، لم يكن مجرد رجل يرفع الأذان، بل كان صوت الإيمان الذي يرتفع

كل فجر ومغرب، كلماته كانت كأغاريد الأمل تحلق نحو السماء، تدعو النفوس إلى السكينة والسكينة، ليته يسمع الآن أنين قلبي الذي يفتقده. أما صديقي، فكان في روحه مكتبة متنقلة، تاريخًا حافلاً من الذكريات والتجارب، كتابًا مفتوحًا يحكي عن زمن مضى وعن قصص تشابكت فيها أرواحنا، ومع رحيله، انطوت صفحة ذهبية من صفحات تاريخي المشترك، تاركًا خلفه إحساسًا بالفراغ لا يمكن ملؤه. وشابة في ريعان العمر، غادرتني فجأة، كزهرة برية قُطفت قبل أن تتفتح بتلاتها بالكامل، تاركةً وراءها زهرتين لم تزل أورقاها يانعة، تائهتين في عالم لم تفهما بعد، لترسم علامة استفهام مؤلمة على وجه الحياة: لماذا تذبل الورود قبل أوانها؟

وفي خضم هذا المشهد المهيب، حيث تتساقط أوراق الخريف من شجرة حياتي، لا على سبيل المجاز الشعري فحسب، بل كواقع ملموس يلامس أوجاعي بكل قسوة، ينبعث من مكان قريب ضجيج يخرق حاجز الصمت، ليس صمت المقابر الذي يلف الكون، بل صمت النفوس المكلومة التي تعتصرها الأحزان. إنه ضجيج يطغى على تراتيل القرآن، التي تتلى

على أرواح الراحلين كشلال من السكينة والطمأنينة. أصوات صاخبة تتعالى، موسيقى وأهازيج محلية تتراقص على أنغام فرح لا يبالي بمرارة الفقد، وكأنها ترقص على جراحي. وكأن القدر، بسخريته الأبدية والمؤلمة، يصرخ في وجهي بكلمات لاذعة: "هذه هي الحياة، أيها الإنسان، مزيج لا ينفصل من النور والظلام، من الفرح الذي يرقص على شفا الهاوية، والألم الذي ينهش في القلوب، من الموت الذي يتربص بنا في كل زاوية، والميلاد الذي يعدنا ببزوغ فجر جديد. إنها سيمفونية الوجود التي تعزف على أوتار متناقضة، حيث تتداخل النغمات الحزينة مع الألحان الصاخبة".

يا له من تناقض صارخ! تتراقص فيه مشاعري بين الحزن العميق الذي يمزق القلوب ويجعلها تترف دمًا صامتًا، والفرح السطحي الذي لا يلامس الروح، بل يظل يطفو على السطح كزبد البحر. هل فقد قلبي، في غمرة صخب الحياة الذي يلهث وراء الماديات، القدرة على الشعور بالآخر؟ هل أصبحت حواجز الصمت، لا تلك المادية التي تفصل البيوت، بل تلك النفسية التي تعزل الأرواح، تفصلني عن الآخرين، حتى بات العرس

يزاحم الجنازة في نفس الزمان والمكان، والفرح يطغى على الحزن دون أي احترام؟ هل غاب فن التعاطف من قاموسنا الإنساني، أم أنه أصبح سلعة نادرة في سوق الأنانية؟

هذه هي الأسئلة التي تتردد في دهاليز روحي، أيها الدفتر الصامت. إنها تتردد كصدى في كهف مظلم، تبحث عن بصيص نور. وتبقى الإجابات معلقة في فضاء الوجود الشاسع، كنجوم بعيدة لا تلوح في الأفق، تنتظر من يفك شفرتها، أو ربما تنتظر مني أن أتعلم كيف أعيش هذه التناقضات، وكيف أجد المعنى في كل من الفرح والألم، في كل من الحياة والموت. فهل من سبيل لإعادة التوازن المفقود، أم أن هذا هو قدري الأبدي في هذه المسرحية الكونية، حيث تتوالى الفصول دون توقف، وتتغير الأدوار دون إنذار؟

بين براءة الظنّ ولعنة الجحود

أيها الدفتر الصامت!؛

لا تزال أصداء قضية "شيشاوة" ترن في أذنيّ، تلك القضية التي جسدت أبهى صور المثابرة في سبيل العدالة، وأقسى دروس الجحود التي قد يتجرعها المحامي. أربعة موكلين، وجوههم محفورة في ذاكرتي، قدموا إليّ من أعماق شيشاوة، تتهمهم أيادٍ خفية بجنايات الضرب بالسلاح وقطع الطريق العمومية. استمعت لقصصهم، رأيت الخوف في عيونهم، وبصيص الأمل الذي تعلق بي. اتفقنا على الأتعاب، كاملاً غير منقوص، فلكل عمل أجر، ولكل جهد ثمن، وهذا مبدأ أؤمن به تمام الإيمان.

رافقتهم في مرحلة التحقيق، خطوة بخطوة، جلسة تلو الأخرى، ثلاث جلسات كانت كافية لأرى خيوط البراءة تتجلى شيئاً فشيئاً. كانت حججنا قوية، ودفاعنا متماسكاً، وبفضل الله، أثلج صدري قرار المحكمة بمتابعتهم في حالة سراح، مقابل كفالة مالية بلغت مليوني سنتيم. تنفست الصعداء حينها، شعرت

بأن العدالة بدأت تأخذ مجراها، وبأن الأمل في براءتهم قد تحقق جزئياً.

لم يتزعزع إيماني ببراءتهم للحظة، بل زادني يقيناً وإصراراً. دخلنا غمار الجنايات الابتدائية، وكم من ليالٍ قضيتها أبحث وأنقب، أجمع الأدلة، وأصيغ المرافعات. دافعت عنهم بشراسة المحارب الذي يرى الحق نصب عينيه، وبفصاحة اللسان الذي لا يخشى قول الحقيقة. لكن، وكما يحدث أحياناً في أروقة العدالة، جاء الحكم صادماً: إدانة بالحبس لمدة سنة واحدة لكل واحد منهم، بالإضافة إلى تعويض مالي لفائدة المطالب بالحق المدني. شعرت بخيبة أمل تعتصر قلبي، فليس أصعب على المحامي من أن يرى جهده يذهب سدى، وأن يعلم أن موكليه يدفعون ثمناً ليس لهم يد فيه.

ولكن، يا أيها الدفتر الصامت، الاستسلام لا يعرف طريقاً إلى قلبي، ولا إلى قاموسي المهني. فبعد هذا الحكم المجحف، لم يكن أمامي خيار سوى الطعن في القرار. رفعت القضية إلى الجنايات الاستئنافية بمراكش. كان الطريق شاقاً، وماراثون الجلسات طويلاً ومضنياً. كل جلسة كانت اختباراً جديداً

لصبري، وقدرتي على إقناع القضاة. ناقشت الملف واقعاً وقانوناً، استعرضت كل زاوية فيه، كشفت كل ثغرة، ووضعت الحقائق أمام أعينهم بوضوح لا يقبل الشك.

وأخيراً، جاء الفرج. قررت المحكمة إلغاء القرار الابتدائي، وحكمت ببراءة ثلاثة منهم، مع إلغاء التعويض المحكوم ضدهم! كانت تلك اللحظة... تلك اللحظة التي تثلج الصدر، وتجعل كل التعب يذوب، وتؤكد أن الحق يعلو ولا يُعلى عليه. شعرت بانتصار حقيقي، ليس لي وحدي، بل لهم، لأسرهم، ولحقيقة كنت أؤمن بها منذ البداية.

ولكن، ويا للمرارة التي تتركها بعض التجارب في النفس! ها قد مضت ثمانية أشهر إلى حدود الساعة، منذ ذلك الانتصار الذي لا يُقدر بثمن. ثمانية أشهر من الانتظار، ومن الطلبات المتكررة، ومن الوعود الكاذبة التي تتبخر كسراب. لم أتوصل بأتعابي. تلك الأتعاب التي اتفقنا عليها، التي كانت مقابل جهد وعلم وسهر الليالي. أحياناً، أتساءل: هل يقدر بعض البشر عظمة ما يُقدم لهم؟ هل يُدركون أن مهنتنا ليست مجرد أوراق ومرافعات، بل هي أرواح ندافع عنها، وحقوق نصارع من أجلها؟

إنها قصة أخرى تُضاف إلى سجل هذا الدفتر الصامت، قصة تروي كيف يتداخل النصر القضائي مع الخيبة الإنسانية، وكيف أن بعض الانتصارات، رغم عظمتها، تترك خلفها طعماً مريراً من الجحود. تبقى الأسئلة معلقة، وتبقى الروح تتألم في صمت، على أمل أن يأتي اليوم الذي يُقدر فيه الجهد، ويُصان فيه العهد.

عدالةٌ حانية

أيها الدفتر الصامت!؛

في زحام القضايا، وبين ركام الملفات، تختبئُ حكاياتٌ، بعضها يلهثُ خلفَ المادة، وبعضها الآخر ينبضُ بإنسانيةٍ خالصة، تذكّرنا لماذا اخترنا هذه المهنة الشريفة. اليوم، تفتحت أمامي صفحةٌ جديدةٌ، لا تحملُ في طياتها صخبَ الجناياتِ الكبرى ولا تعقيداتِ النزاعاتِ المالية، بل قصةً بسيطةً لروحٍ وديعةٍ كادت أن تُسحق تحت وطأة الإجراءات، لولا أن تجلّت "عدالةٌ حانيةٌ".

كانت قاعة المحكمة تعجُ بالحضور، ضجيجٌ خافتٌ يملأ الأرجاء، وفي المنتصف، كان يقفُ رجلٌ، ملامحهُ تنطقُ بالسذاجةِ تارةً، وبالقلقِ تارةً أخرى. بدا كأنه تائهٌ في متاهاتِ هذا العالم القانوني المعقد. متهمٌ بجنحة، تفاصيلها لم تكن تهمُّني بقدر ما شدّني ذلك البياضُ الذي يكسو روحه. سألهُ القاضي، بصوته الرصين الذي يملأ القاعة، سؤالاً اعتيادياً يُطرح في بداية كل محاكمة: "هل ستُكلف محامياً لمؤازرتك أم ستدافع عن نفسك؟"

تردد الرجل قليلاً، نظراته تتنقل بين القاضي والصفوف الخالية أمامه، ثم نطقَ بما لم أتوقعه، وبكلماتٍ خرجت من عمق بساطته: "أريد أن تُعين لي المحكمةُ محامياً من عندها." ابتسم القاضي ابتسامةً خفيفةً، تحملُ في طياتها فهمَ الموقف، ثم أوضح له بهدوءٍ وثباتٍ أن تعيين المحامي من قبل المحكمة يقتصر على قضايا الجنايات، بينما هو متهمٌ في جنحة.

لحظة صمتٍ ثقيلة خيّمت على القاعة، قبل أن تُكسر بتوسلٍ خرجَ من الرجل، كأنما هو نداءٌ أخيرٌ للنجدة: "أرجوكم أن تُعينوا لي محامياً." كانت تلك الكلمات، وتلك النظرة المليئة بالرجاء، كافيةً لتُشعلَ في داخلي شرارةً. لقد رأيتُ فيه ليس مجرد متهمٍ، بل إنساناً يستحقُّ يدَ العون.

التفتَ القاضي نحو صفوف المحامين، ورمى بسؤاله النبيل، سؤالاً يفتحُ بابَ الخيرِ على مصراعيه: "من يتطوع للدفاع عنه؟" في تلك اللحظة، لم أستمع لصوت عقلي الذي يُحصي التكاليف، بل لصوت ضميري الذي يُلبي نداءَ الحاجة. تقدمتُ بخطواتٍ واثقةٍ، وقلتُ بصوتٍ سمعهُ كل من في القاعة: "أنا

مستعدٌ لذلك." كانت تلك اللحظة التي شعرتُ فيها بمعنى الكلمة، "عدالةٌ حانيةٌ".

تلقفتُ الملف، وبدأتُ أُغوص في صفحاته، أُفككُ خيوطه المتشابكة، أُقلبُ أوراقه بحثاً عن الحقيقة. بقيتُ أُحلل وأُدقق، أستنبطُ الحججَ من بين السطور، حتى بعد أن انتهت جميع القضايا الأخرى وغادرت الجموع القاعة، بقيتُ أنا، أُضيءُ شمعةَ الأمل لهذا الرجل البسيط. وعندما حان دوري، تقدمتُ إلى المنصة، وترافعتُ مرافعةً أظنها من أروع ما قدمتُ في حياتي. لم تكن مجرد كلمات، بل كانت صرخةَ حقٍّ، ودفاعاً عن روحٍ بريئةٍ كادت تُظلم.

وحين سأل القاضي المتهمَ كلمتهُ الأخيرة، كانت الإجابةُ التي لم أكن أنتظرها، والتي تجاوزت كل تقديرٍ مادي: "أشكرُ المحكمةَ على هذا المحامي النابغة." كلماتٌ بسيطةٌ، لكنها كانت كبلسمٍ شفى كلّ تعب، وأجراً معنوياً يفوقُ أي أتعابٍ مالية.

النهاية كانت مُشرفة، فقد خففت المحكمةُ الحكمَ عليه. كانت تلك الجلسةُ شاهداً على أن الإنسانيةَ، بقيمها النبيلة وعطفها الصادق، قادرةٌ على أن تطغى على حرفيةِ القانونِ الباردةِ

أحياناً. إنها دروسٌ محفورةٌ في ذاكرة هذا الدفتر الصامت، تذكّرني بأن مهنتنا ليست مجردَ نصوصٍ وبنود، بل هي قبل كل شيء، دعوةٌ إلى "عدالةٍ حانيةٍ" تُنيرُ دروبَ التائهين وتُعيدُ الأملَ إلى القلوبِ المنكسرة.

حبلُ الصوتِ القاتل

أيها الدفتر الصامت!؛

لا تزالُ قاعات المحاكمِ، رغم جدرانها الصامتةِ، تحتضنُ أشدَّ القصصِ رعباً وأعظمَ دروسِ الحنكةِ. وكم من مرةٍ شعرتُ أنَّ العدالةَ، وإن كانت تسيرُ بخطىً ثابتةٍ، تحتاجُ أحياناً إلى لمسةٍ من الذكاءِ الفذِّ لِتُزيحَ ستارَ المكرِ والخداع. اليوم، أخطُّ لكَ حكايةً تجسّدُ هذا المعنى بكلِّ تفاصيلهَا المؤلمةِ، قصةُ طفلةٍ بريئةٍ، ومكرِ قاتلٍ، وحنكةِ قاضٍ.

بدأت القضيةُ بصرخةٍ تُدمي القلوبَ: طفلةٌ صغيرةٌ مختفيةٌ. اختفاءٌ غامضٌ تركَ وراءهُ أسرةً مُفجوعةً، ومدينةً بأسرها في حالةِ ترقبٍ وقلقٍ. ثمَّ جاءت الصدمةُ الكبرى، حينَ عُثرَ على رجلها المبتورةِ فقط. مشهدٌ كفيلٌ بأن يُزلزلَ أعصابَ أشدِّ القلوبِ صلابةً.

لم يطلِ الوقتُ حتى ألقيَ القبضُ على متهمٍ، رجلٍ كان قد طلبَ فديةً مقابلَ الطفلة. في قاعة المحكمة، وعلى منصةِ العدالةِ، وقفتُ أُراقبُ تفاصيلَ هذا المشهدِ الدرامي. سألهُ القاضي،

بصوته الهادئ الذي يحملُ في طياته ثقلَ المسؤولية: "ما قولك في التهمةِ المنسوبةِ إليك؟" جاءَ الجوابُ سريعاً، بارداً، خالياً من أيِّ ندمٍ: "أنكرها."

استمرَّ القاضي، بنظرةٍ ثاقبةٍ، يُحللُ ردودَ المتهم، ثمَّ طرحَ سؤالهُ المحوريَّ الذي بدتْ لي نواتهُ الأولى، لبِّ القضيةِ كلها: "كيفَ عرفتَ أوصافَ الطفلةِ التي حددتَ لوالدها حينما طلبتَ الفدية؟" ابتسمَ المتهمُ ابتسامةً باردةً، وكأنَّهُ قد أعدَّ جوابهُ مسبقاً، واثقاً من مكرِهِ: "سمعتُ الأوصافَ من الإذاعةِ، حينما أدرجوها في حلقةٍ مختفون." حجةٌ تبدو مقنعةً للوهلةِ الأولى، لولا أنَّ حنكةَ القاضي كانت أعمقَ من ذلك بكثير.

لم يُعطِهِ القاضي فرصةً للاسترسالِ في كذبِهِ، بل باغتهُ بسؤالٍ آخرَ، كان بمثابةِ الضربةِ القاضيةِ: "لكنَّ والدَها أكَّدَ أنكَ سمحتَ لها بأن تُكلِّمهُ ويسمعَ صوتَها." هنا، بدتْ على وجهِ المتهمِ أولى علاماتِ الارتباكِ. حاولَ التماسكَ، ثمَّ ردَّ بجرأةٍ مصطنعةٍ: "أنا قلدتُ صوتَها."

في تلكَ اللحظةِ الحاسمةِ، تجلّت حنكةُ القاضي الجنائيِّ بأبهى صورها. لم يزدْ في الكلامِ، بل طرحَ تحدياً بسيطاً، ولكنهُ

كان قمةً في الذكاءِ، سيفاً بتاراً يقطعُ حبلَ الكذبِ: "قلِّدْ صوتَها الآنَ لِنرَى." كانت لحظةً صامتةً، تُرسمُ فيها نهايةُ المجرمِ بوضوحٍ مؤلم. اضطربَ المتهمُ، تلعثمَ، وبدتْ عليهِ علاماتُ الهلعِ. حاولَ التملصَ، ثمَّ نطقَ بكلماتٍ لم تكشفْ كذبهُ وحسب، بل كشفتْ جبنهُ أيضاً: "لا أستطيعُ الآنَ."

تلكَ الكلماتُ البسيطةُ كانت كافيةً. أدركتْ المحكمةُ على الفورِ أنهُ الفاعلُ الحقيقيُّ. حنكةُ القاضي، التي استطاعتْ أن تُجبرَ القاتلَ على كشفِ نفسهِ دونَ دليلٍ ماديٍّ مباشرٍ، كانت مدهشةً بحق. لم يكنْ هناكَ مجالٌ للشكِّ بعدَ ذلكَ. وعليهِ، حكمتْ عليهِ المحكمةُ بأقصى عقوبةٍ ممكنةٍ.

نهايةٌ قضائيةٌ، غلبتْ فيها حنكةُ قاضٍ جنائيٍّ مكرَ قاتلٍ مُخادعٍ. إنها قصةٌ تُضافُ إلى سجلِّ هذا الدفترِ الصامت، تُذكّرنا بأنَّ العدالةَ ليستْ مجردَ نصوصٍ قانونيةٍ، بل هيَ أيضاً قدرةٌ على قراءةِ النفوسِ، وفكِّ شفراتِ الأكاذيبِ، والإبحارِ في أعماقِ الحقيقةِ، حتى لو كانتْ مُغطاةً بأشدِّ ستائرِ المكرِ ظلاماً.

ثمنُ الانتقام

أيها الدفتر الصامت!؛

لا تزالُ قاعةُ المحكمةِ تشهدُ من الحكاياتِ ما يُدمي القلبَ، وما يُحيرُّ العقلَ. في هذه المهنة، نتعلمُ أنَّ الشرَّ لا يأتيكَ دائماً من وجوهٍ غريبةٍ، بل قد يتخفى خلفَ أقنعةِ الألفةِ والعشرةِ، وأنَّ الانتقامَ قد يُعمي البصيرةَ لدرجةٍ تُفقدُ صاحبَهُ الإنسانيةَ. اليوم، أروي لكَ قصةً هزتْ أركانَ روحي، قصةً كادت أن تُدمّرَ حياةَ رجلٍ بريءٍ، لولا أنَّ حنانَ الأبوةِ أضاءَ دروبَ الظلامِ.

بدأت القضيةُ ببلاغٍ صادمٍ، كالصاعقةِ التي تضربُ بلا سابقِ إنذارٍ: أمٌّ تتهمُ زوجها، أباً لطفلتها، باغتصابِ ابنتهما الصغيرةِ. كانت التهمةُ ثقيلةً، والاتهامُ بالغَ القسوةِ، كفيلٌ بأن يُسقطَ حياةَ أيِّ رجلٍ في قاعِ الجحيمِ. من خلالِ التفاصيلِ الأوليةِ، تبيّنَ أنَّ دوافعَ الزوجةِ كانت انتقاميةً بحتةً، على خلفيةِ خلافاتٍ زوجيةٍ مريرةٍ. لكنَّ القانونَ لا يلتفتُ للدوافعِ إلا في سياقِ البحثِ عن الحقيقةِ، والحقيقةُ وحدها هيَ ما كنتُ أبحثُ عنه.

كانَ الأبُ ينكرُ بشدةٍ، وعلاماتُ الصدمةِ باديةٌ على وجههِ الذي شحبَ، كأنهُ لا يُصدّقُ ما يحدثُ. أما الطفلةُ، فقد كانتْ صغيرةً، تُجبرُ على الإدلاءِ بشهادتها في جوٍّ مشحونٍ بالتوترِ، بينَ نارِ أمٍّ تريدُ الانتقامَ، وبينَ براءةٍ لا تدركُ أبعادَ المأساةِ التي تُحاكُ حولها. شعرتُ بثقلِ المسؤوليةِ يقعُ على عاتقي، فالدفاعُ هنا لم يكنْ عن رجلٍ فقط، بل عن حقيقةٍ قد تُداسُ، وعن طفولةٍ قد تُشوهُ.

تواصلتْ جلساتُ المحاكمةِ، كلُّ شهادةٍ تُلقى، وكلُّ دليلٍ يُقدمُ، كانَ يُشعلُ في نفسي صراعاً بينَ الرغبةِ في تصديقِ البريءِ، والشكِّ الذي تُلقيهِ الظروفُ المحيطةُ. كنا نُرافعُ، نُقدمُ الحججَ، نُفندُ الادعاءاتِ، لكنَّ كلماتِ الطفلةِ كانتْ هيَ الفيصلَ.

وجاءت اللحظةُ الحاسمةُ، التي لا تُنسى. كانت الطفلةُ تشهدُ، تُرددُ كلماتٍ ربما لقّنتها لها أمُّها، لكنَّ نظراتها كانتْ تتخبّطُ بينَ أمِّها وأبيها، وكأنَّ صراعاً داخلياً عنيفاً يدورُ في روحها الصغيرةِ. في تلكَ اللحظةِ، وبينما كانتْ العيونُ كلها تترقبُ، حدثَ ما لم يتوقعْهُ أحدٌ. فجأةً، وبصوتٍ خافتٍ، ثمَّ يرتفعُ، غلبَ حنانُ الأبوةِ كلَّ شيءٍ. نظرتْ إلى أبيها، ثمَّ إلى أمِّها، وانفجرتْ

باكيةً، معترفةً بصدقٍ مؤلمٍ: "أبي بريءٌ... أمي قالتْ لي أن أقولَ ذلكَ."

تلكَ الكلماتُ البسيطةُ، التي خرجتْ من براءةِ طفلةٍ، كانت كفيلةً بأن تُزلزلَ أركانَ المحكمةِ، وتُسقطَ أقنعةَ الزيفِ. تبدلتْ ملامحُ القضاةِ، وسادَ صمتٌ مهيبٌ. لم تعد هناكَ حاجةٌ للمزيدِ من التساؤلاتِ أو الأدلةِ. الحقيقةُ تجلّتْ، ليسَ بقوةِ البراهينِ الماديةِ، بل بقوةِ العاطفةِ البشريةِ التي لا تُقهرُ.

لقد تبيّنَ لكلِّ من في القاعةِ أنَّ الأمرَ لم يكنْ سوى بلاغٍ كاذبٍ، وحيلةٍ دنيئةٍ تهدفُ إلى الانتقامِ من زوجٍ، حتى لو كانَ الثمنُ تدميرَ حياةِ طفلةٍ بريئةٍ وأبٍ بريءٍ. وعليهِ، بعدَ التحقيقاتِ اللازمةِ، توبعتْ الزوجةُ بالبلاغِ الكاذبِ.

تلكَ القضيةُ، يا أيها الدفترُ الصامتُ، تركتْ في نفسي أثراً عميقاً. إنها تُعلمنا أنَّ الحقيقةَ، وإن طالَ عليها ليلُ التضليلِ، لا بدَّ وأن تُشرقَ. وتُذكّرنا بأنَّ أقدسَ الروابطِ الإنسانيةِ، كعلاقةِ الأبوةِ، قادرةٌ على أن تكونَ السيفَ الذي يقطعُ خيوطَ الشرِّ، وتُعيدَ للعدالةِ رونقها الإنسانيَّ، حتى في أحلكِ الظروفِ.

حكمٌ ومغزى: فيلا وثقةٌ منقوضة

أيها الدفتر الصامت!؛

في عالمٍ أصبحت فيه ساحاتُ القضاءِ الافتراضيةُ لا تقلُّ صخباً عن الحقيقيةِ، تظهرُ لنا قصصٌ تُدهشُ، وتُحيرُ، وتُعيدُ تعريفَ مفهومِ الثقةِ في العلاقاتِ الإنسانيةِ. اليوم، لم أكنْ طرفاً مباشراً في قضيةٍ، بل كنتُ متأملاً في حكمٍ لفتَ انتباهي بشدةٍ على إحدى منصاتِ التواصلِ الاجتماعيِّ، حكمٌ صادرٌ عن المحكمةِ الابتدائيةِ بصفرو، يُسلطُ الضوءَ على مرارةِ الثقةِ المنقوضةِ.

القصةُ التي قرأتها، وتداولها الكثيرون، كانت عن زوجٍ بنى فيلا بأموالهِ الخاصةِ، ثمَّ سجّلها باسمِ زوجتهِ، تعبيراً عن حسنِ نيتهِ، وربما إيماناً منهُ بقوةِ رباطِ الزواجِ. لكنَّ الصدمةَ كانتْ قاسيةً، حينَ انتهى بهما المطافُ إلى الطلاقِ، وبعدهُ، إلى ساحةِ القضاءِ، حيثُ أنكرتْ الزوجةُ كلَّ ما قدمهُ، جاحِدةً فضلَهُ، وناسيةً نبلَ فعلِهِ.

لقد قرأتُ كيفَ تقدمَ الزوجُ المسكينُ بمقالٍ إلى تلكَ الابتدائيةِ، شارحاً كيفَ أنَّ هذا الصرحَ بُنيَ بمالهِ، وأنَّ تسجيلهُ باسمها كانَ محضَ تعبيرٍ عن الثقةِ، لا عن تخلٍّ عن ملكيتهِ. لكنَّ المفاجأةَ كانت في ردِّ الطليقةِ، التي أصرتْ على أنَّها هيَ من قامتْ ببناءِ الفيلا بمالها الخاص، مدعيةً أنَّ دخلها كأستاذةٍ للتعليمِ كانَ كافياً لذلكَ، وأنَّ طليقها لم يكنْ سوى مُشرفٍ على العمالِ، ليسَ أكثرَ. يا لها من وقاحةٍ في الإنكارِ، ويا لهُ من استغلالٍ فجٍّ لنيةٍ حسنةٍ!

لكنَّ ما بثَّ الأملَ في نفسي وأنا أتابعُ تفاصيلَ هذا الحكمِ المنشورِ، هوَ حكمةُ المحكمةِ. لقد استمعتْ إلى قلبِ القضيةِ، إلى المقاولِ الذي أشرفَ على البناءِ. شهادتهُ كانتْ كالشمسِ التي تُبددُ الغيومَ؛ فقد أكدَ أنَّ الطليقَ هوَ من كانَ يُسلمه المبالغَ الماليةَ لبناءِ الفيلا. تلكَ الشهادةُ، يا أيها الدفترُ الصامتُ، هيَ جوهرُ العدالةِ، حينَ يُنطقُ الشاهدُ بالحقِّ ويُزيحُ الستارَ عن الزيفِ.

وبناءً على هذهِ الشهادةِ الصادقةِ، اقتنعتْ المحكمةُ الابتدائيةُ بصفرو، بكلِّ حكمةٍ وإنصافٍ، بأقوالِ الرجلِ. لقد جاءَ الحكمُ ليُعيدَ الحقَّ إلى نصابِهِ، ويُعيدَ بعضَ الكرامةِ لروحٍ جُرحتْ. قضتْ

المحكمةُ لهُ بنصفِ الفيلا، وأمرتْ المحافظَ العقاريَّ بقسمةِ العقارِ، مع تحميلِ الطليقةِ الصائرَ. كانَ حكماً يُعيدُ الثقةَ في أنَّ المكرَ لا يدومُ، وأنَّ الحقَّ يعلو.

لكنَّ متابعتي لما نشرَ تُشيرُ إلى أنَّ القصةَ لم تنتهِ هنا. فالحكمُ الابتدائيُّ، رغمَ عدالتِه، لم يكنْ الكلمةَ الأخيرةَ. لقد قامتْ الطليقةُ باستئنافِ هذا الحكمِ أمامَ محكمةِ الاستئنافِ بفاس، ولا زالَ الملفُ ينتظرُ البتَّ فيه. هذا يُذكرني دائماً بأنَّ مسارَ العدالةِ قد يكونُ طويلاً وشاقاً، وأنَّ النصرَ في مرحلةٍ قد لا يعني نهايةَ المطافِ.

إنَّ تداولَ مثلِ هذهِ القضايا وأحكامها على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ، يا أيها الدفترُ الصامتُ، يُشكلُ مرآةً حقيقيةً لمجتمعنا. تُظهرُ لنا وجهينِ: وجهَ الخيانةِ والجحودِ، ووجهاً آخرَ للعدالةِ التي تسعى جاهدةً لكشفِ الحقيقةِ وإنصافِ المظلومِ، حتى لو كانتْ الثقةُ هيَ الضحيةَ الأولى. تبقى العبرةُ قائمةً، ويبقى القضاءُ ملجأً لمن فقدَ الأملَ في استعادةِ حقوقِه.

جبلٌ، وجريمة، وصرخةُ جسد

أيها الدفتر الصامت!؛

في دهاليزِ العدالةِ، حيثُ تتشابكُ خيوطُ الأقدارِ معَ صرامةِ القانونِ، أُسجّلُ اليومَ قصةً، كلما تذكرتُ تفاصيلَها، انقبضَ قلبي ألماً، وتساءلتُ عن الخطِّ الرفيعِ بينَ القسوةِ، والدفاعِ عن النفسِ، وصرخةِ الجسدِ الذي يرفضُ الإذعانَ. إنها حكايةُ فتاةٍ، زُفتْ قسراً إلى رجلٍ لمْ تعرفْ لهُ حباً، ليُختتمَ مصيرُها، ومصيرُهُ، بفاجعةٍ على قمةِ جبلٍ.

زُوجتْ تلكَ الفتاةُ، رغماً عن إرادتها، لِشريكٍ لمْ يكنْ لقلبها فيهِ نصيبٌ. وبسببِ ذلكَ الرفضِ العميقِ، عصمتْ نفسَها منهُ، ومنعتهُ من الدخولِ بها، متمسكةً بآخرِ خيوطِ إرادتها في زواجٍ فُرضَ عليها.

وفي ليلةٍ ماطرةٍ، أو هكذا أتخيلُ المشهدَ، طلبَ الزوجُ منها لقاءً ليلياً على قمةِ جبلٍ، لمناقشةِ إنهاءِ علاقتهما. استجابتْ لهُ، ربما على أملِ أنْ يُنهيَ ذلكَ اللقاءُ كابوسَ حياتها. لكنَّ القدرَ كانَ يُخبئُ لهما خاتمةً أخرى.

على قمةِ الجبلِ، وفي جنحِ الظلامِ، استغلَّ الزوجُ فرصةَ انفرادِهِ بزوجتِهِ. ما بدأَ نقاشاً، تحوّلَ إلى محاولةٍ قسريةٍ للدخولِ بها ومعاشرتها بالقوةِ. قاومتْ الفتاةُ ببسالةٍ، دافعتْ عن نفسها، عن جسدها، عن كرامتها التي كادت تُنتهكُ. في لحظةِ دفعٍ يائسٍ، سقطَ الزوجُ من أعلى الجبلِ، ليفارقَ الحياةَ في الحينِ. صرختُ جسدٍ مُستَفزٍّ، كانتْ أقوى من كلِّ الكلماتِ.

هنا، دخلتْ العدالةُ خطَّها الصارمَ. تابعَ ممثلُ النيابةِ العامةِ الزوجةَ بجريمةِ الإيذاءِ العمديِّ المفضي إلى الموتِ. حكمتْ غرفةُ الجناياتِ الابتدائيةُ عليها بسنواتٍ من السجنِ النافذِ، وتعويضاتٍ ماليةٍ لذوي الزوجِ الهالكِ. كانَ حكماً قاسياً، لكنَّ القانونَ ينظرُ إلى النتائجِ، لا إلى الدوافعِ وحدها.

استأنفتْ الزوجةُ هذا القرارَ الابتدائيَّ، كما استأنفهُ ممثلُ النيابةِ العامةِ أيضاً. وفي مرحلةِ الاستئنافِ، ارتفعَ الحكمُ، لِتُدانَ الفتاةُ بسنواتٍ أطولَ من السجنِ النافذِ. شعرتُ حينها بضيقٍ، فشيءٌ ما في هذهِ القضيةِ كانَ يُخالفُ المنطقَ الإنسانيَّ رغمَ ثباتِ النصِّ القانونيِّ.

لم تَيأسْ الفتاةُ. طعنتْ في القرارِ أمامَ أعلى محكمةٍ. وهنا، تجلتْ بصيرةُ القضاءِ الأعلى. قضتْ محكمةُ النقضِ بنقضِ القرارِ الاستئنافيِّ، لسببٍ جوهريٍّ: محكمةُ الاستئنافِ لم تُناقشْ "عذرَ الاستفزاز". لم تُناقشْ ما إذا كانَ الزوجُ الهالكُ قد عنّفَ الزوجةَ بالقوةِ، وحاولَ مضاجعتها بغيرِ إرادتها، الأمرَ الذي استفزها ودفعها إلى ردِّ فعلٍ، جعلها تدفعُهُ من فوقِ الجبلِ. كانَ هذا النقضُ بمثابةِ بصيصِ أملٍ في نفقٍ مظلمٍ.

أُحيلتْ القضيةُ من جديدٍ على غرفةِ الجناياتِ الاستئنافيةِ في مدينةٍ أخرى. الأملُ كانَ معلقاً على مناقشةِ عذرِ الاستفزازِ. لكنَّ الحكمَ جاءَ، للأسفِ، ليُعيدَ الفتاةَ إلى المربعِ الأولِ، ليُؤكدَ عليها نفسَ العقوبةِ السابقةِ من السجنِ النافذِ، وبالتأييدِ في الباقي. طعنتْ الزوجةُ من جديدٍ بالنقضِ، ولكن هذهِ المرةَ، قضتْ محكمةُ النقضِ برفضِ الطلبِ.

والآن، هذهِ الزوجةُ، التي تحوّلتْ إلى أرملةٍ في ظروفٍ مأساويةٍ، تقضي عقوبةَ السجنِ الطويلةِ. إنها قصةٌ تُثقلُ كاهلَ الضميرِ، وتُثيرُ تساؤلاتٍ عميقةً عن العدالةِ، عن الحدودِ الفاصلةِ بينَ القصدِ، والردِّ على الاستفزازِ، وصراعِ الروحِ للدفاعِ عن آخرِ

معاقلِ الكرامةِ. يبقى هذا الدفترُ الصامتُ شاهداً على أنَّ لكلِّ قضيةٍ وجهاً إنسانياً لا تُدركهُ الأرقامُ، ولا تُحصيهِ الموادُّ القانونيةُ وحدها.

صرخةُ مستقبلٍ

أيها الدفتر الصامت!؛

في غمرةِ المعاركِ القضائيةِ الكبرى، حيثُ تتصارعُ المصالحُ وتتشابكُ الخصوماتُ، ننسى أحياناً أنَّ العدالةَ تكمنُ في أبسطِ التفاصيلِ، وفي نصرةِ الحقوقِ الصغيرةِ التي تُشكلُ مستقبلاً كاملاً لروحٍ بشريةٍ. اليوم، أُسجلُ لكَ حكايةً تُعيدُ الأملَ في قضاءٍ لا يرى في الأوراقِ مجردَ بنودٍ، بل يرى خلفها أحلاماً، وطموحاتٍ، ومستقبلاً كاملاً على وشكِ الضياعِ.

وصلتْني قضيةٌ ليستْ كغيرها، لا تحملُ في طياتها تعقيدَ الجناياتِ ولا صخبَ النزاعاتِ الماليةِ، بل بساطةَ خطأٍ في تاريخِ ازديادِ فتاةٍ. خطأٌ يبدو هيناً للوهلةِ الأولى، لكنهُ كادَ أن يُحطمَ مستقبلَ تلميذةٍ مجتهدةٍ كانتْ تسعى جاهدةً للحصولِ على وثيقتها الثبوتيةِ الضروريةِ لاجتيازِ امتحانٍ مصيريٍّ، امتحانِ البكالوريا.

لقد سارتْ الأمورُ في مسارها القانونيِّ الصحيحِ. قُدمتْ الدعوى لإصلاحِ الخطأِ، وصدرَ الحكمُ الابتدائيُّ بإصلاحِ تاريخِ

الازديادِ. تنفستْ التلميذةُ الصعداءَ، وبدأتْ تُحضرُ نفسَها بثقةٍ للموعدِ الكبيرِ.

لكنَّ القدرَ، أو لنقلْ الإجراءاتِ القانونيةَ الصارمةَ، كانَ لهُ رأيٌ آخرُ. للأسفِ، استأنفتْ الجهةُ المعنيةُ هذا الحكمَ. استئنافٌ، رغمَ بساطةِ الموضوعِ، أوقفَ تنفيذَ الحكمِ. وهذا يعني، يا أيها الدفترُ الصامتُ، أنَّ التلميذةَ لم تتمكنْ من إصلاحِ الخطأِ، وبالتالي لمْ تحصلْ على وثيقتها الثبوتيةِ في الوقتِ المحددِ.

لقد جاءها الردُّ القاطعُ من إدارتها، كالضربةِ الموجعةِ: "إذا لمْ تحصلي على الوثيقةِ الوطنيةِ، فلنْ تجتازي امتحانَ البكالوريا." لحظةٌ حرجةٌ، كادتْ أن تُدفنَ فيها أحلامٌ وشهورٌ من الجهدِ والمثابرةِ. مستقبلٌ بأكملهِ على المحكِّ بسببِ خطأٍ إداريٍّ بسيطٍ واستئنافٍ إجرائيٍّ.

هنا، كانَ لابدَّ للعدالةِ أنْ تُسرعَ خطواتها. قمنا، نحنُ فريقُ الدفاعِ، برفعِ دعوى استعجاليةٍ أمامَ رئيسِ المحكمةِ المختصةِ. لم نُطلْ في الشرحِ، بل اختصرنا القضيةَ في صرخةِ مستقبلٍ يضيعُ، وحقٍّ يُهدرُ. أوضحنا أنَّ التلميذةَ لن تستطيعَ الحصولَ على وثيقتها قبلَ يومِ الامتحانِ بسببِ هذا الاستئنافِ، والتَمَسْنا من

قاضي المستعجلاتِ أمراً فورياً يمُكنُها من اجتيازِ الامتحانِ ريثما يُحسمُ أمرُ الوثيقةِ.

كانَ قاضي المستعجلاتِ، في تلكَ اللحظةِ، فارساً للحقِّ، تجسدتْ فيهِ أسمى معاني الشجاعةِ القضائيةِ. أدركَ حجمَ المأساةِ المحتملةِ، وأهميةَ الوقتِ. أصدرَ أمراً استعجالياً، دونَ استدعاءِ الأطرافِ، لكونِ القضيةِ تقتضي سرعةً استثنائيةً. قضى الأمرُ بالإذنِ للتلميذةِ باجتيازِ امتحانِ البكالوريا، معَ النفاذِ المعجلِ، وعلى الأصلِ. يا لهُ من قرارٍ! كلماتٌ بسيطةٌ أنقذتْ مستقبلاً كاملاً.

ولله الحمدُ، اجتازتْ التلميذةُ الامتحانَ، وتمكنتْ من النجاحِ. كانت فرحةً لا تُوصفُ، لا فقط لنجاحها، بل لأنَّ العدالةَ، في إحدى صورها المشرقةِ، قد انتصرتْ لأجلِها. أُباركُ لها نجاحها، وأُقدمُ الشكرَ لكلِّ مَن ساهمَ في هذا النصرِ، من المحاميِّ الذي لم ييأسْ، إلى القاضيِّ الذي أدركَ أنَّ القانونَ أسمى من مجردِ إجراءاتٍ.

للأسفِ، ما زلتُ أُفكرُ كيفَ كادَ مستقبلُ هذهِ التلميذةِ أن يضيعَ بسببِ استئنافٍ عاديٍّ لحكمٍ قضى بإصلاحِ خطأٍ بسيطٍ في

تاريخِ ازدياد. إنها تُعلمنا أنَّ روحَ القانونِ تكمنُ في إنسانيتهِ، وأنَّ القضاءَ، حينما ينحازُ للمستقبلِ وللحقوقِ الأصيلةِ، يصبحُ بالفعلِ ميزاناً حقيقياً لا يزنُ فقط النصوصَ، بل يزنُ أيضاً الأحلامَ والآمالَ.

صراخُ الإعلامِ وميزانُ القضاء

أيها الدفتر الصامت!؛

في أروقةِ العدالةِ، حيثُ تُحاكمُ الأفعالُ وتُوزنُ الأقوالُ، تبقى السلطةُ التقديريةُ للقضاةِ ركناً أساسياً، لكنها في بعضِ الأحيانِ، تُلقي بظلالِها على اليقينِ، وتُبرزُ فوارقَ تثيرُ التساؤلاتِ، خاصةً عندما يتدخلُ صوتٌ آخرُ لم يكنْ يوماً جزءاً من قاعةِ المحكمةِ: صوتُ الإعلامِ. اليوم، أدوّنُ لكَ تأملاتي في قضيةٍ عكستْ هذا التفاوتَ بوضوحٍ مؤلمٍ.

لقد تداولَ الرأيُ العامُّ قصةَ سيدةٍ، تعرضتْ لاعتداءٍ عنيفٍ تركَ على جسدها جروحاً بليغةً، تطلبتْ عدداً كبيراً من الغرزِ. في الحكمِ الابتدائيِّ، جاءَ القرارُ في حقِّ المعتدي خفيفاً، عقوبةٌ حبسيةٌ قصيرةٌ، لمْ تُرضِ الضحيةَ، ولمْ تُطفئْ لهيبَ الظلمِ الذي أحستْ به. خرجتْ تلكَ السيدةُ إلى الإعلامِ، وصرختْ بأعلى صوتها، محتجةً على الحكمِ، مُرددةً عباراتٍ تُعبرُ عن استيائها العميقِ، ناشرةً قصتها وتفاصيلَ معاناتها على الملأ.

كانَ لهذا الصراخِ الإعلاميِّ تأثيرهُ. فبعدَ الاستئنافِ، جاءَ الحكمُ من محكمةٍ عليا ليُغايرَ تماماً الحكمَ الابتدائيَّ. ارتفعتْ العقوبةُ الحبسيةُ بشكلٍ كبيرٍ، وقُضيَ بتعويضٍ ماليٍّ للضحيةِ، أكبرَ بكثيرٍ مما قد يُتوقعُ في مثلِ هذهِ القضايا عادةً. الفارقُ كانَ صادماً، ويُذكرني بحدودِ السلطةِ التقديريةِ للقضاةِ، وكيفَ يمكنُ أن تختلفَ بينَ درجاتِ التقاضي.

هذا الملفُ، بكلِّ تفاصيله، يُعيدُ إلى ذاكرتي قضايا مشابهةً، لعلَّ أبرزها كانَ ملفَ اعتداءٍ جنسيٍّ على فتاةٍ قاصرٍ في منطقةٍ أخرى. في ذلكَ الملفِ أيضاً، صدرَ حكمٌ ابتدائيٌّ في حقِّ المتهمينَ بعقوبةٍ حبسيةٍ قصيرةٍ، بدافعِ إيقافِ التنفيذِ لجزءٍ منها. لكنَّ صدمةَ الرأيِ العامِّ، وصخبَ الإعلامِ، كانَ لهما صدىً مدوٍّ. فبعدَ الاستئنافِ، أصدرتْ غرفةُ الجناياتِ الاستئنافيةِ حكماً مختلفاً جذرياً، قضى بعقوباتٍ سجنيةٍ طويلةٍ جداً في حقِّ هؤلاءِ المتهمينَ.

لمْ يعدْ خافياً، يا أيها الدفترُ الصامتُ، أنَّ الإعلامَ قد أصبحَ، بحقٍّ، سلطةً رابعةً، لهُ تأثيرٌ كبيرٌ، وأحياناً حاسمٌ، على مسارِ القضايا وتوجهاتِ الأحكامِ. وهذا ليسَ بالضرورةِ أمراً سلبياً دائماً،

فهو قد يُجبرُ على إعادةِ النظرِ في قضايا قد تُظلمُ فيها الحقوقُ. لكنَّ التفاوتَ الكبيرَ بينَ الأحكامِ الابتدائيةِ والاستئنافيةِ، خاصةً بعدَ تدخلِ الإعلامِ، يُثيرُ قلقاً مشروعاً.

لذلكَ، أرى أنَّه باتَ من الضروريِّ جداً العملُ على وضعِ معاييرَ واضحةٍ للسلطةِ التقديريةِ للقضاةِ. لا يعني ذلكَ سلبَ القاضي استقلالهُ، بل ضبطها في إطارٍ يُقللُ من حدوثِ تفاوتاتٍ كبيرةٍ وغيرِ مفهومةٍ في الأحكامِ. فالعدالةُ، في جوهرها، يجبُ أن تكونَ ثابتةً، مفهومةً، وأن لا ترتهنَ لمدى صراخِ الضحيةِ في الإعلامِ، بل لقوةِ الحقِّ في جوهرِ القضيةِ. إنها دعوةٌ لضبطِ ميزانِ العدالةِ، حتى لا يختلَّ تحتَ ضغطِ الأصواتِ الخارجيةِ، ويبقى قائماً على مبادئِ الإنصافِ والشفافيةِ.

وعودٌ كاذبةٌ... وقانونٌ حائر

أيها الدفتر الصامت!؛

في دهاليزِ العدالةِ، حيثُ تتشابكُ النصوصُ معَ الواقعِ، وحيثُ تُوضعُ حياةُ البشرِ على المحكِّ، أُسجلُ لكَ اليومَ قضيةً ما زلتُ أُفكّرُ في تفاصيلها، وفي تذبذبِ تصنيفِ الفعلِ الجرميِّ بينَ ما هوَ جنحةٌ وما هوَ جنايةٌ، وكيفَ يمكنُ لِوعودٍ كاذبةٍ أنْ تُدمّرَ أرواحاً بريئةً. إنها حكايةٌ تُثيرُ الألمَ، وتُلقي بظلالِ التساؤلِ على ميزانِ العدالةِ.

وصلني ملفٌ يتحدثُ عن رجلٍ نسجَ خيوطَ الكذبِ والخداعِ حولَ طفلةٍ قاصرٍ. وعدها بالزواجِ، وهوَ الوعدُ الذي يُمكنُهُ أنْ يُغوِيَ قلوباً ضعيفةً تبحثُ عن الأمانِ. استدرجها إلى منزلِه، ومارسَ عليها أفعالاً شنيعةً امتدتْ لسنواتٍ، لتُثمرَ في النهايةِ حياةً جديدةً، طفلةً جاءتْ إلى العالمِ نتيجةَ هذهِ العلاقةِ المُحرمةِ. المتهمُ، وفي اعترافٍ نادرٍ، أقرَّ بكلِّ المنسوبِ إليهِ.

النيابةُ العامةُ، في بدايةِ الأمرِ، تابعتْهُ بتهمةِ التغريرِ بقاصرٍ وهتكِ عرضها دونَ عنفٍ، وهي تهمةٌ تُصنفُ في خانةِ الجنحِ.

لكنَّ ما حدثَ بعدَ ذلكَ في المحكمةِ الابتدائيةِ كانَ أمراً يستحقُ التأملَ. فقد قضتْ تلكَ المحكمةُ بأنَّ هذهِ الأفعالَ ليستْ مجردَ جنحةٍ، بل هيَ جنايةٌ خطيرةٌ تُصنفُ في بابِ الاتجارِ في البشرِ. لقد استندَ قرارُها إلى اقترانِ الفعلِ بقصدِ الاستغلالِ الجنسيِّ للفتاةِ القاصرِ، خاصةً وأنها كانتْ تعيشُ وضعاً هشاً، بلا مأوى، وسبقَ أن تعرضتْ لأفعالٍ مماثلةٍ، فضلاً عن وعدِهِ لها بالزواجِ الذي كانَ وسيلةَ الاستدراجِ.

وبناءً على هذا التصنيفِ الجديدِ، قضتْ المحكمةُ الابتدائيةُ بعدمِ اختصاصها، لأنَّ الأفعالَ أصبحتْ في نظرها جنايةً يعودُ اختصاصُ الحكمِ فيها إلى محكمةِ الاستئنافِ. كانَ هذا القرارُ بمثابةِ بصيصِ أملٍ في قلبي، فهو يُظهرُ فهماً عميقاً للتداخلِ بينَ الجريمةِ وظروفها، وتفسيراً جريئاً للنصوصِ القانونيةِ بما يخدمُ العدالةَ وحمايةَ الضحايا الأكثرِ هشاشةً.

لكنَّ مسارَ العدالةِ غالباً ما يكونُ ملتوياً. استأنفَ المتهمُ هذا الحكمَ، فجاءَ قرارُ محكمةِ الاستئنافِ ليُثيرَ دهشتي. لقد قضتْ بإلغاءِ الحكمِ الابتدائيِّ، وإرجاعِ الملفِّ إلى المحكمةِ الابتدائيةِ،

مُعللةً ذلكَ بأنَّ الأفعالَ ليستْ جنايةً بل مجردَ جنحةٍ. وكأنَّها تُعيدُ القضيةَ إلى المربعِ الأولِ، وتُقللُ من فداحةِ الفعلِ.

وهكذا، عادتْ القضيةُ إلى المحكمةِ الابتدائيةِ التي، وبناءً على قرارِ محكمةِ الاستئنافِ، قضتْ على المتهمِ بحكمٍ حبسيٍّ قصيرٍ. عشرةُ أشهرٍ فقط، لِجرائمَ امتدتْ لسنواتٍ، وأسفرتْ عن مولودٍ، وأثرتْ في حياةِ طفلةٍ قاصرٍ إلى الأبدِ!

إنها مفارقةٌ عجيبةٌ، يا أيها الدفترُ الصامتُ، بينَ رؤيتينِ قانونيتينِ لنفسِ الوقائعِ. كيفَ يمكنُ لِنفسِ الأفعالِ أنْ تُصنفَ كـ"اتجارٍ في البشرِ" من محكمةٍ، ثمَّ تُخفضَ إلى "جنحةٍ" من محكمةٍ أعلى؟ هذهِ التفاوتاتُ، وتباينُ السلطةِ التقديريةِ، تُلقي بظلالِ الشكِّ على مبدأِ اليقينِ القانونيِّ، وتُثيرُ تساؤلاتٍ عميقةً حولَ حمايةِ الفئاتِ الهشةِ في مجتمعنا. تبقى هذهِ القضيةُ محفورةً في ذاكرتي، شاهداً على أنَّ القانونَ، رغمَ نُبلِ غايتهِ، قد يظلُّ في بعضِ الأحيانِ، حائراً بينَ النصِّ، وروحِ العدالةِ، وصرخةِ الضحيةِ المكتومةِ.

رحلةُ الرزق

أيها الدفتر الصامت!؛

في خضمِّ صخبِ القضايا، وبينَ مرارةِ الخصوماتِ وحلاوةِ الانتصاراتِ، يأتي الليلُ غالباً، فيُلقي على الروحِ سكينتهُ، ويُفتحُ بابُ التأملِ على مصراعيهِ. اليومَ، لم تكنْ تأملاتي في تفاصيلِ ملفٍّ، ولا في حنكةِ قاضٍ، بل في معنىً أعمقَ يُلامسُ جوهرَ وجودنا، معنى "الرزقِ" الذي يُحيّرُ العقولَ ويُصيّرُ القلوبَ.

أدركتُ، معَ كلِّ يومٍ يمضي في هذهِ المهنةِ الشائكةِ، أنَّ الرزقَ لا يُستجدى، ولا يُختطفُ. ليسَ هوَ تلكَ الأتعابَ التي نُطاردُها، ولا تلكَ الأبوابَ التي نطرقُها بيأسٍ. بل هوَ شرفٌ يهبُهُ اللهُ لمن يشاءُ، في وقتهِ، لا في وقتكَ. كم مرةٍ طرقتُ أبواباً ظننتُ أنها مفتاحُ فرجٍ، وكم قابلتُ من خيباتٍ على عتباتٍ أغلقتْ في وجهي! لكنَّ كلَّ خيبةٍ كانتْ درساً، وكلَّ بابٍ مُغلقٍ كانَ يُعيدُ توجيهَ البوصلةِ.

في الخفاءِ، أيها الدفترُ الصامتُ، شيءٌ يُجهَّزُ لنا. حكمةٌ لا نراها بعينِ البصيرةِ المحدودةِ، ورحمةٌ لو كُشفتْ لنا سترها، لبكينا

امتنانًا، لا جزعًا. فكم من أمرٍ تمنيتُهُ بشدةٍ، ولم يُقدرْ لي، ثم اكتشفتُ لاحقاً أنَّ في منعهِ خيراً عظيماً، وأنَّ في تأخيرهِ صوناً لي من شرٍّ لمْ أكنْ لأُدركهُ؟

لقد تعلمتُ أنَّ القيودَ التي تظنها عوائقَ في طريقِكَ إلى رزقِكَ، قد تكونُ في حقيقتها جسورًا خفيةً نحو رزقٍ أنقى، أو باباً يُفضي إلى خيرٍ لمْ تكنْ لتصلَ إليهِ إلا بعبورِ تلكَ القيودِ. فكم من قضيةٍ ظننتُها ضاعتْ مني، فإذا بغيرها يأتي، محمّلاً بخيرٍ لمْ أكنْ لأتخيلهُ؟

وكلُّ تأخيرٍ في الوصولِ إلى ما ترغبُهُ، أيها الصديقُ الصامتُ، فيهِ حفظٌ لكَ، وحمايةٌ من شرٍّ قد تُلقي نفسكَ فيهِ بتهوّرِكَ. وكلُّ انتظارٍ يُنضجُكَ قبلَ أنْ تصلَ إليهِ. فالانتظارُ ليسَ فراغاً، بل هوَ فترةُ تهيئةٍ، وصقلٍ للروحِ، ودروسٍ تُكتسبُ في الصبرِ واليقينِ.

لذا، أمشي الآنَ في دروبِ الحياةِ، وفي هذهِ المهنةِ الشاقةِ، بثقةٍ ويقينٍ. لمْ أعدْ أستعجلُ أبواباً لمْ يُؤذنْ لها أنْ تُفتحَ. أُدركُ الآنَ أنَّ ما كانَ لكَ، سيسعى إليكَ، حتى لو كنتَ في أقصى الضعفِ. هذا الفهمُ يُريحُ النفسَ، ويُزيلُ عن القلبِ عبءَ القلقِ الدائمِ،

ويمُكنُكَ من التركيزِ على ما يجبُ عليكَ فعلهُ، تاركاً أمرَ الرزقِ لِمدبرِهِ الحكيمِ.

ثمنُ المواجهة

أيها الدفتر الصامت!؛

في غمرةِ ما نشهدهُ من صراعاتٍ في قاعاتِ القضاءِ، وما نُراقبُهُ من تداعياتٍ على أرواحِ البشرِ، أُدركُ يوماً بعدَ يومٍ أنَّ الحياةَ ليستْ دائماً درباً مُعبداً بالسلامِ والتفاهمِ. بل إنَّ بعضَ الأمورِ، التي تُنهكُ الذاتَ وتُصيبها بالتآكلِ البطيءِ، لا تُعالَجُ إلا بطرقٍ قد تبدو قاسيةً للوهلةِ الأولى.

كم من مرةٍ رأيتُ أناساً يذبلونَ في صمتٍ، يُحاولونَ التكيفَ معَ واقعٍ مُرٍّ، أو يُفضّلونَ الانسحابَ البطيءَ من مواقفَ تُدميهم؟ هذهِ الأمورُ، التي تتراكمُ كالصخورِ فوقَ الروحِ، لا تتبدّدُ بمجردِ التمنيِّ، ولا تُشفى بالصمتِ المطبقِ. بل إنَّ تجاربيَ في هذهِ المهنةِ، وحياتي الشخصيةِ، تُعلّمني أنَّها لا تُعالَجُ إلا بالمواجهةِ.

المواجهةُ ليستْ بالضرورةِ صوتاً عالياً، أو خصومةً علنيةً. قد تكونُ مواجهةً للذاتِ أولاً، اعترافاً قاسياً بالواقعِ الذي نُحاولُ تجاهلَهُ. وقد تكونُ مواجهةً للآخرِ، صراحةً مُؤلمةً لكنها ضروريةً، تُزيحُ الستارَ عن حقائقَ طالما تغاضينا عنها.

وفي بعضِ الأحيانِ، يا أيها الدفترُ الصامتُ، لا تكفي المواجهةُ الهادئةُ. فبعضُ التآكلاتِ العميقةِ، وبعضُ العلاقاتِ السامةِ، أو الظروفِ المُدمرةِ، لا تُصلحُ إلا بـالاصطدامِ المُدمرِ. اصطدامٌ يُحطمُ كلَّ الأوهامِ القديمةِ، ويُنهي دورةَ الألمِ التي لا تتوقفُ. قد يكونُ هذا الاصطدامُ مؤلماً، وقد يُخلفُ ندوباً، لكنهُ ضروريٌّ جداً.

إنَّ هذا الاصطدامَ، بقدرِ ما فيهِ من قسوةٍ، هوَ تمهيدٌ لبدءِ صفحةٍ جديدةٍ. صفحةٍ لا يُمكنُ كتابتها على أنقاضِ القديمِ إلا بعدَ إزالتهِ بالكاملِ. إنها لحظةُ تطهيرٍ، وإن كانتْ مؤلمةً. بعدها، قد تحملُ هذهِ الصفحةُ الجديدةُ الخلاصَ. خلاصاً للروحِ من أسرِ الألمِ المزمنِ، وتحرراً من قيودِ الماضي التي كانتْ تُكبلُها.

كم من قضيةٍ رأيتُ فيها طرفينِ يُنهكانِ بعضهما البعضَ، لا يستطيعانِ التحررَ إلا بعدَ اصطدامٍ قضائيٍّ عنيفٍ، يُنهي كلَّ الأوهامِ ويُجبرُهما على رؤيةِ الحقيقةِ؟ وكم من أرواحٍ لمْ تستطعْ التنفُّسَ إلا بعدَ أنْ قررتْ مواجهةَ واقعها الأليمَ، حتى لو كانَ الثمنُ باهظاً؟

فالحياةُ، أيها الدفترُ الصامتُ، ليستْ دائماً عن تجنبِ الألمِ. بل هيَ أحياناً عن خوضِ الألمِ بوعيٍ وشجاعةٍ، لكي نصلَ إلى برِّ الأمانِ. إنَّ ثمنَ المواجهةِ قد يكونُ غالياً، لكنَّ ثمنَ التآكلِ في صمتٍ، دونَ اصطدامٍ أو تجديدٍ، هوَ أغلى بكثيرٍ، فهو يُفقدُ الروحَ جوهرَها.

موازينُ السماء

أيها الدفتر الصامت!؛

في ردهاتِ العدالةِ، حيثُ تُصاغُ القوانينُ بحرفيةٍ بالغةٍ، وتُبذلُ الجهودُ لِتطبيقِها على كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ، أُدركُ يوماً بعدَ يومٍ أنَّ هناكَ حقائقَ أعمقَ، وموازينَ تتجاوزُ ما خطتْهُ أيدي البشرِ. أحياناً، وبعدَ أن تُصدرَ المحكمةُ حكمها، وبعدَ أنْ نُقلبَ أوراقَ القضيةِ مراتٍ ومراتٍ، يبقى في النفسِ شيءٌ، إحساسٌ بأنَّ هناكَ بعداً للعدالةِ لا يمُكنُ لِلبنودِ القانونيةِ أن تُحيطَ بهِ.

تذكّرتُ اليومَ قضيةً ما زالتْ تُثيرُ في نفسي خليطاً من الألمِ والحيرةِ. تلكَ القضيةُ التي تورطَ فيها رجلٌ، استغلَّ ضعفَ فتاةٍ صغيرةٍ، ووعدها بآمالٍ كاذبةٍ، ثمَّ استدرجها إلى عالمٍ مظلمٍ من الاستغلالِ. لقد امتدَّتْ أفعالُهُ المشينةُ لسنواتٍ، تاركةً وراءها روحاً مُهشّمةً، ومولوداً جاءَ إلى الدنيا في ظروفٍ لا تُطاقُ. المتهمُ اعترفَ بكلِّ ما اقترفَ.

لقد شهدتْ هذهِ القضيةُ تذبذباً غريباً في تصنيفِ الفعلِ الجرميِّ. فبينما رأتهُ جهةٌ قضائيةٌ فعلاً يستدعي أقصى التصنيفاتِ

القانونيةِ لفداحتهِ، مُصنِّفةً إياه ضمنَ الجرائمِ الكبرى التي تُصيبُ جوهرَ الإنسانيةِ، معتبرةً أنَّ الوعدَ بالزواجِ في هذا السياقِ، معَ استغلالِ هشاشةِ الضحيةِ، هوَ عينُ الاستغلالِ البشريِّ. إلا أنَّ محكمةً أخرى، في درجةٍ أعلى، رأتْ خلافَ ذلكَ، وأعادتهُ إلى خانةِ الجرائمِ الأقلِّ خطورةً، مُرجعةً الملفَ إلى حيثُ بدأَ.

وفي النهايةِ، وبعدَ كلِّ هذا التنازعِ القانونيِّ، جاءَ الحكمُ ليُخففَ العقوبةَ بشكلٍ بدا غيرَ متناسبٍ معَ حجمِ المأساةِ التي خلّفها الفعلُ. تلكَ النتيجةُ، وهذا التفاوتُ في تقديرِ جسامةِ الجرمِ، جعلني أتأملُ بعمقٍ في حقيقةِ العدالةِ.

في لحظاتٍ كهذهِ، يترددُ في خلدي يقينٌ لا يتزعزعُ: إنَّ ما في يدِ اللهِ لا يُوزّعُ بقوانينِ الناسِ! فمهما اجتهدتْ المحاكمُ في تطبيقِ النصوصِ، ومهما تفاوتتْ سلطةُ القضاةِ التقديريةِ، يبقى هناكَ حسابٌ أسمى، وميزانٌ أدقُّ، لا تقعُ منهُ ذرةٌ.

فالعدالةُ الإلهيةُ لا تُقيدها تكييفاتُ الجرائمِ، ولا تذبذبُ التصنيفاتِ القانونيةِ. هيَ ترى الألمَ كلهُ، والنيةَ كلها، والنتيجةَ كلها. وهذا لا يُقللُ من قيمةِ سعينا الدائمِ لتحقيقِ العدالةِ البشريةِ، بل يُذكرنا بحدودها، ويُبقينا متواضعينَ أمامَ عظمةِ الخالقِ. إنَّ

القوانينَ البشريةَ هيَ جهدٌ نبيلٌ لترسيخِ النظامِ والإنصافِ في هذا العالمِ، لكنَّ الروحَ، والوجدانَ، ومصيرَ النفوسِ، تبقى رهناً لموازينَ أسمى، لا تُدركُها أعينُنا إلا بنورِ اليقينِ.

هذهِ القضيةُ، وكلُّ القضايا التي تُظهرُ هذا التفاوتَ، تُذكرني بأنَّ سعينا في المحاماةِ ليسَ فقط لِتطبيقِ النصِّ، بل لإيصالِ صوتِ الحقيقةِ، والسعيِ نحو ما نؤمنُ أنهُ العدلُ المطلقُ، وإن لمْ تكنْ كلُّ نتائجهِ مُدركةً بقوانينِ الأرضِ.

عِبرةُ الأيام

أيها الدفتر الصامت!؛

في خضمِّ ما تُقدمُهُ لي قاعاتُ المحاكمِ من دروسٍ يوميةٍ، وما تكشفُهُ عن خبايا النفوسِ البشريةِ، أجدُ نفسي أحياناً أخرجُ عن سياقِ الملفاتِ والقوانينِ، لِأتأملَ في حقائقَ أعمقَ، حقائقَ تُلامسُ جوهرَ وجودِنا ومصيرَنا. وليستْ هذهِ التأملاتُ لِأُريحَ بها نفسي فحسبُ، بل لِأُوجهَ بها نصيحةً، صادقةً وقاسيةً أحياناً، إلى كلِّ مَن تُسوّلُ لهُ نفسهُ الانحرافَ عن جادةِ الحقِّ، أو مَن يتيهُ في غفلةِ السلطةِ والجاهِ.

أيها المخالفونَ، أو مَن تُغويكمُ الأوهامُ بِنفوذٍ زائلٍ، لا تراهنوا أبداً على سلطتِكم، على منصبِكم، على معارفِكم الواسعةِ. فكلُّ ذلكَ، أيها الغافلونَ، ليسَ سوى ظلٍّ عابرٍ. لكلِّ أجلٍ كتابٌ؛ لكلِّ نهايةٍ بدايةٌ، ولكلِّ شمسٍ غروبٌ، ولكلِّ سلطانٍ أفولٌ. إنَّ عجلةَ الأيامِ دوّارةٌ، وما يرفعُهُ الدهرُ اليومَ، قد يخفضهُ غداً.

كم رأيتُ في هذهِ المهنةِ، وفي دروبِ الحياةِ، من الغافلينَ الذينَ أمسى أحدهمُ رئيساً، وأصبحَ مُقالاً في غمضةِ عينٍ. وكم

من الذينَ أمسوا أحراراً يتنعمونَ بالحريةِ المطلقةِ، وأصبحوا مسجونينَ خلفَ القضبانِ، بعدَ أنْ ظنوا أنَّ سلطتهمْ ستحميهمْ. وكم من الذينَ أمسوا بينَ عليَّةِ القومِ، يُشارُ إليهم بالبنانِ، وأصبحوا أسفلَ سافليهم، يُنكرهمُ حتى الأقربون. إنَّ هذهِ ليستْ حكاياتٍ من الأساطيرِ، بل هيَ واقعٌ مُتكررٌ، تُسطّرهُ الأيامُ في كلِّ لحظةٍ.

إنها حقيقةٌ قاسيةٌ، لكننا نحتاجُ بينَ الفينةِ والأخرى إلى مَن يُذكرنا بها. إنها كالصفعةِ التي تُوقظُ من غفلةٍ عميقةٍ، لتُوقظَ فينا ضميراً ماتَ على قيدِ الحياةِ. ضميراً قد غطاّهُ الغرورُ، أو أظلمتهُ الأطماعُ، أو أُرهقتهُ المطاردةُ الزائفةُ للمناصبِ والمالِ.

فالقانونُ، أيها المخالفُ، ليسَ مجردَ نصوصٍ على ورقٍ، بل هوَ روحُ العدالةِ التي لا تُقهرُ. ومهما بلغَ مكرُكَ، أو عظمَ منصبُكَ، أو اتسعتْ شبكةُ معارفكَ، فإنَّ يدَ العدالةِ قد تطولكَ في اللحظةِ التي لا تتوقعها، وفي المكانِ الذي تظنُ أنكَ بمنأى عنهُ.

لذا، فليكنْ هذا الدفترُ الصامتُ اليومَ، صوتَ نصيحةٍ، لمن يسمعُ ويُدركُ: تذكرْ أنَّ الحقوقَ لا تُنتزعُ بالقوةِ، والظلمَ لا يدومُ، وأنَّ لكلِّ فعلٍ حساباً. فالنهايةُ، أيها الغافلُ، قد لا تكونُ بيدكَ، ومهما طالَ أمدُ التساهلِ، فإنَّ "عِبرةَ الأيامِ" قادمةٌ لا محالةَ،

وستُعيدُ لكلِّ ذي حقٍّ حقهُ، ولِكلِّ ظالمٍ جزاءهُ. فهلاَّ استيقظَ الضميرُ قبلَ فواتِ الأوانِ؟

غزوٌ رقميٌّ... وضمائرُ مهددة

أيها الدفتر الصامت!؛

في دهاليزِ هذهِ المهنةِ التي تُشرّحُ النفوسَ وتُظهرُ جوانبَ الظلامِ والنورِ في الإنسانِ، أجدُني أقفُ متأملاً في ظاهرةٍ باتتْ تُلقي بظلالها القاتمةِ على مجتمعنا، ظاهرةٍ لمْ تكنْ لترُى بوضوحٍ قبلَ غزوِ التقنيةِ لحياتنا. إنهُ أثرُ التكنولوجيا، هذا السيفُ ذو الحدينِ، حينَ يتحولُ إلى أداةٍ لِتدميرِ العقولِ والأسرِ.

في زمننا هذا، حيثُ اقتحمتْ التقنيةُ كلَّ بيتٍ، وصارتْ الإنترنتُ جزءاً لا يتجزأُ من حياةِ الأفرادِ، نشهدُ غزوَ فكرٍ وسلوكٍ لمْ نعهدْهُ بهذا الانتشارِ من قبلُ. لقد غزتْ موادُ معينةٌ، تُعرضُ على شاشاتٍ صغيرةٍ، عقولَ شبابنا ونشأتنا، حتى غدتْ، للأسفِ الشديدِ، من أخطرِ أسلحةِ الغزوِ الفكريِّ والثقافيِّ. إنها تُقوضُ الأخلاقَ، وتُدمرُ الأسرَ من الداخلِ، وتُهددُ الصحةَ الجسديةَ والنفسيةَ لِأجيالٍ بأكملها. كم من قضيةٍ رأيتُها في مكتبي، كانَ جذورُها تمتدُ إلى هذا المستنقعِ الرقميِّ!

ولأنَّ الوقايةَ لا تكونُ إلا بالعلمِ، فقد قرأتُ في الآونةِ الأخيرةِ عن أحدِ الكتبِ العلميةِ الهامةِ التي جاءتْ لِتكشفَ بالأدلةِ العلميةِ والأبحاثِ الحديثةِ ما تصنعهُ هذهِ الموادُ السامةُ في أدمغةِ من يستهلكونها. هذا الكتابُ، الذي يعتمدُ على علمِ الأعصابِ الحديثِ، يُوضحُ كيفَ يُعيدُ الدماغُ تشكيلَ نفسهِ تحتَ وطأةِ الإفراطِ في استهلاكِ هذهِ المشاهدِ. نظامُ المكافأةِ الطبيعيِّ ينهارُ، التوازناتُ تختلُّ، ويصبحُ العقلُ أسيراً لمؤثراتٍ مصطنعةٍ تقتلُ الإحساسَ بالمودةِ والرحمةِ التي أرادها الخالقُ في العلاقاتِ الإنسانيةِ.

يتجاوزُ هذا العملُ التنظيرَ، لِيسوقَ تجاربَ واقعيةً فريدةً، تجاربَ "إعادةِ التشغيلِ" التي خاضها الآلافُ من الرجالِ حولَ العالمِ، من بيئاتٍ وأديانٍ مختلفةٍ. رجالٌ ثاروا على قيودِ الشهوةِ، وعزموا على الإقلاعِ، فاستعادوا إنسانيتَهم وصحتهم وسعادتهم. وهذا يُثبتُ أنَّ الخلاصَ ممكنٌ، وأنَّ الإرادةَ الحرةَ قادرةٌ على الانتصارِ حتى على أشدِّ أنواعِ الإدمانِ.

هذا الفهمُ، أيها الدفترُ الصامتُ، ليسَ وعظاً دينياً، بل هوَ علمٌ نافعٌ، يمدُّ القارئَ بمفاتيحَ لِفهمِ الخطرِ الداهمِ، ويوفرُ أدواتٍ

عمليةً للإقلاعِ. ومعَ ذلكَ، فرسالتهُ تنسجمُ تماماً معَ روحِ الدينِ، إذ تدعو إلى العفافِ، وضبطِ الشهوةِ، وحمايةِ الأسرةِ، وتؤكدُ أنَّ مَن استعانَ بدينهِ كانَ نصرهُ أيسرَ، وخطاهُ أثبتَ. وفي صفحاتهِ، يجدُ المبتلى سَنداً علمياً يعضدُ عزيمتهُ، ويجدُ المربيُّ والوالدُ ما يفتحُ لهما بابَ الفهمِ لِيَحميا أبناءهما من فتنِ العصرِ.

في زمنٍ صارَ فيهِ أبناؤنا أدرى منا بخبايا التقنيةِ، وتراجعتِ التربيةُ الجنسيةُ الرشيدةُ، وتُركَ المراهقونَ بلا توجيهٍ، يطلُّ هذا الكتابُ كَصرخةِ تحذيرٍ لكلِّ عاقلٍ: إنَّ ما يبدو تسليةً بريئةً هوَ في الحقيقةِ صناعةٌ مُدمرةٌ، تهدفُ إلى استعبادِ العقولِ، ونهبِ الإراداتِ. إنها دعوةٌ صادقةٌ إلى كلِّ رجلٍ عاقلٍ، وكلِّ امرأةٍ رشيدةٍ، أنْ يقفوا في وجهِ هذا الطوفانِ، وأنْ يأخذوا بأيدي أنفسهم وأبنائهم قبلَ فواتِ الأوانِ. فمهنتُنا هذهِ تُعلمنا أنَّ الوقايةَ خيرٌ ألفَ مرةٍ من العلاجِ، خاصةً حينَ يتعلقُ الأمرُ بِصحةِ العقولِ وسلامةِ المجتمعاتِ.

ثمنُ الظهور

أيها الدفتر الصامت!؛

في غمرةِ ما أُسديهِ من نصائحَ قانونيةٍ لِموكليَّ، وما أُقدمهُ لهم من استشاراتٍ تُجنبهم الوقوعَ في شراكِ القانونِ، غالباً ما أجدُني أُقدمُ لهم نصائحَ تتجاوزُ حدودَ القوانينِ والمحاكمِ، لِتلامسَ جوهرَ الحياةِ والعلاقاتِ الإنسانيةِ. اليوم، وبعدَ لقاءٍ معَ موكلٍ بدا متحمساً لِعرضٍ تلقاهُ، أجدُ لِزاماً عليَّ أنْ أدوّنَ نصيحةً لطالما آمنتُ بها: نصيحةً قد تُجَنبُ المرءَ مرارةَ الموقفِ، حتى وإنْ كانَ يبدو تكريماً.

كنتُ أُخاطبُ موكليَّ اليومَ، وفي ذهني تدورُ هذهِ الفكرةُ التي لطالما كانتْ لي بوصلةً في دروبِ الحياةِ المعقدةِ: "لا تقبلْ التكريمَ من شخصٍ لا يعرفُ عنكَ شيئاً."

قد تبدو هذهِ الكلماتُ غريبةً بعضَ الشيءِ، فالتكريمُ، بحدِّ ذاتهِ، عادةً ما يكونُ أمراً مرغوباً، يشعرُ المرءُ فيهِ بالتقديرِ والاعترافِ بجهدهِ. لكنَّ التجربةَ، يا أيها الدفترُ الصامتُ، تُعلمنا أنَّ التكريمَ، إنْ جاءَ من مصدرٍ غيرِ مُدركٍ لِعمقِكَ، لِسيرتِكَ

الحقيقيةِ، لِكفاحِكَ، لِتضحياتِكَ، فإنهُ قد يحملُ في طياتهِ ما هوَ أدهى من الإهانةِ العلنيةِ.

فـمعرفتهُ بكَ ستكونُ حدودَ تقديمهِ ورقتَكَ لِغيركَ. كيفَ لِشخصٍ لا يعرفُ من أنتَ حقاً، ولا يُدركُ كُنهَ جهدكَ، أنْ يُمثلكَ تمثيلاً لائقاً أمامَ الآخرينَ؟ كيفَ لهُ أن يُعليَ من شأنكَ بما يتناسبُ معَ قدركَ الحقيقيِّ، إذا كانَ تقديرهُ لِمعادنكَ سطحياً، مبنياً على لمحةٍ عابرةٍ، أو معرفةٍ ضحلةٍ؟

هنا تكمنُ الكارثةُ الخفيةُ: بسببهِ، ستكونُ مُهاناً دونَ أنْ تشعرَ. قد يضعُكَ في موقفٍ لا تُليقُ بهِ قامتُكَ، قد يُقدمُكَ بكلماتٍ لا تُنصفُكَ، قد تُنسبُ إليكَ صفاتٌ لا تُشبهُكَ، أو تُهمشُ جوانبُ من شخصيتِكَ أو إنجازاتكَ هيَ الأهمُّ. وفي كلِّ هذا، يظنُّ هوَ أنهُ يُكرمُكَ، بينما أنتَ تُهانُ في صميمِ ذاتِكَ، في إدراككَ العميقِ لِمن أنتَ وماذا فعلتَ.

لقد رأيتُ هذهِ المواقفَ تتكررُ في الحياةِ، وفي سياقاتٍ مختلفةٍ. شخصٌ يُقدمُ لِجمهورٍ على أنهُ كذا وكذا، بينما الحقيقةُ أعمقُ وأجلُّ، لكنَّ من يُقدمهُ لا يعرفُ سوى قشوراً. فيشعرُ المكرمُ

حينها بأنَّ قيمتَهُ الحقيقيةَ قد بُخستْ، وأنَّ جهودَهُ قد صُغّرتْ، وأنَّ صورتَهُ قد شُوّهتْ في سبيلِ تجميلِ موقفٍ عابرٍ.

لذلكَ، نصحتُ موكلي، وأُسجلها لكَ أيها الدفترُ الصامتُ، لِتكونَ شاهداً على هذهِ الحقيقةِ: إنَّ التكريمَ الحقيقيَّ لا يأتي من لسانِ من لا يعرفُكَ، بل من ضميرِ من عايشَكَ، ومن تقديرِ من أدركَ عمقَكَ. فابحثْ عن التقديرِ في عينِ من يُبصرُ روحكَ، لا في لسانِ من يُقدمُكَ سطحياً لِغايةٍ عابرةٍ. فثمنُ الظهورِ المُبهرِ قد يكونُ غالياً جداً، إنْ كانَ على حسابِ جوهرِكَ وكرامتِكَ الخفيةِ.

خلودُ الفكر

أيها الدفتر الصامت!؛

في هذهِ الزاويةِ من الوطنِ، حيثُ تُعانقُ الجبالُ الصحراءَ، وحيثُ تسعى العقولُ الشابةُ في رحابِ العلمِ، أجدُني أُخاطبُ اليومَ روحاً عزيزةً، روحَ طالبٍ جامعيٍّ في هذا الجنوبِ الشرقيِّ، يتأهبُ لمستقبلٍ أرجوهُ لهُ مشرقاً. ففي خضمِّ دراستكم، أيها الأحبةُ، وفي رحلتكم نحو المعرفةِ، لابدَّ أنْ تتأملوا في حقيقةٍ أدركتُها من خلالِ ما أقرأهُ، وما أُشاهدهُ من صراعِ الأفكارِ والبقاءِ.

لقد قرأتُ مؤخراً تأملاً عميقاً حولَ فكرةِ الخلودِ، ليسَ خلودَ الأجسادِ، بل خلودَ الأثرِ. هذا التأملُ يقولُ إنَّ الكاتبَ لا يموتُ، لأنهُ لا يمكنُ أنْ نتركهُ أبداً خلفنا، إنهُ في الأمامِ دائماً، في المستقبلِ. ألا ترى يا بني، كم من أفكارٍ قيلتْ قبلَ قرونٍ، وما زالتْ تُشعلُ الوعيَ اليومَ؟

سنلتقي بهِ يوماً ما، هذا الكاتبُ، أو ذاكَ المفكرُ، أو حتى ذلكَ القاضيُّ الذي تركَ بصمةً، حينَ نلتقي بأحدِ نداءاتهِ التي أطلقها في حياتهِ، فنرى صداها يُحركُ واقعنا. سنلتقي بهِ في كلِّ

مرةٍ نقفُ أمامَ فكرةٍ أو رؤيةٍ قالها وهيَ تتحققُ أمامَ أعيننا في مسارِ التاريخِ أو تطورِ المجتمعِ. أليسَ هذا هوَ المعنى الحقيقيَّ لِلخلودِ؟ أليسَ هذا هوَ الإرثُ الذي لا تبلى لهُ السنونَ؟

بل سنلتقي بهِ أيضاً في أناسٍ آخرينَ قرؤوهُ وفكروا فيهِ وبهِ، فصاروا يحملونَ جزءاً من روحهِ وأفكارهِ. وسنلتقيهِ في كلياتِكم التي تدرسونَ فيها، وفي المكتباتِ التي تقتفونَ فيها أثرهُ، وفي الترجماتِ التي تُوسّعُ دائرةَ تأثيرهِ، وفي الندواتِ التي تُحيي فكرهُ. حتى أننا قد نلتقيهِ في الحلمِ حينما نحلمُ، فهو جزءٌ من وعينا الجمعيِّ الذي تشكّلَ بفضلِ عمالقةِ الفكرِ.

ولِذلكَ، يا بني، على الموتِ في هذهِ الحالةِ ألاَّ يصدمنا. فكيفَ يُصدمُ المرءُ بزوالِ جسدٍ، والفكرُ الذي سكنهُ، ما زالَ حياً يُرزقُ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ؟ إنَّ الأمرَ يتعلّقُ بما وصفهُ أحدُ كبارِ الروائيينَ في سياقٍ آخرَ: "بموتٍ مكتومٍ لا يُثيرُ انتباهَ أحدٍ ولا يصدمُ أحداً"، لأنهُ ليسَ موتاً حقيقياً لِلأثرِ.

تأملْ في هذا، أيها الطالبُ الجامعيُّ في الجنوبِ الشرقيِّ، وأنتَ تبني ذاتكَ المعرفيةَ. لِتكنْ دراستكَ، ليسَ فقط لِنيلِ شهادةٍ، بل لِتكونَ حاملاً لِمشعلِ الفكرِ. أدركْ أنَّ ما تُنجزهُ اليومَ، من علمٍ

أو بحثٍ أو حتى فكرةٍ بسيطةٍ تُشاركُها، قد يكونُ بذرةً لخلودٍ، لِأثرٍ لا يموتُ. فاجعلْ لِوجودكَ مغزىً يتجاوزُ حدودَ الجسدِ والزمنِ، وكنْ جزءاً من تلكَ السيمفونيةِ الأبديةِ التي تعزفُها الأفكارُ الخالدةُ.

قصةٌ وراءَ الواجهة

أيها الدفتر الصامت!؛

في دهاليزِ هذهِ المهنةِ، حيثُ تُقلّبُ الأوراقُ وتُشرّحُ الحقائقُ، نتعلمُ أنَّ الظاهرَ قد يُخفي الكثيرَ، وأنَّ السترَ لا يعني دائماً الطهرَ. كم مرةٍ وقفتُ أمامَ حالاتٍ، أيقنتُ فيها أنَّ المظاهرَ قد تُضللُ العيونَ، وأنَّ الحقيقةَ لا تُكشفُ إلا بنبشٍ عميقٍ في أغوارِ النفوسِ والوقائعِ؟ اليوم، أُسجلُ لكَ قصةَ جريمةٍ، حكمَ فيها العدلُ، وكشفتْ حقيقةً ظلتْ مخفيةً خلفَ واجهةٍ براقةٍ.

تذكرتُ اليومَ ملفاً لِزوجينِ، كانتْ قصتهما تُجسدُ مقولةً صادقةً: "وكمْ من أحذيةٍ فاخرةٍ في داخلها جواربُ ممزقةٌ". رجلٌ أودعَ ثقتهُ كلها في زوجتهِ، بنى بيتاً فاخراً، فيلا كانتْ ثمرةَ كدّهِ وجهدهِ، وسجلها باسمِها، في بادرةٍ تدلُّ على أقصى درجاتِ المحبةِ والأمانِ والنيةِ الحسنةِ. لقد كانتْ تلكَ الفيلا واجهةً براقةً، تُشبهُ الحذاءَ الفاخرَ الذي يراهُ الجميعُ ويُعجبُ بهِ.

لكنَّ هذهِ الواجهةَ كانتْ تُخفي جواربا ممزقةً من الجحودِ والنكرانِ. فبعدَ أنْ انتهتْ علاقتهما بالطلاقِ، أنكرتْ الزوجةُ كلَّ ما

قامَ بهِ الرجلُ. ادعتْ أنَّها هيَ من بنتْ الفيلا بمالها، وأنَّ دوره لمْ يتعدَّ متابعةَ العمالِ. لقد كانتْ شهادتها تُشكلُ ثقباً في نسيجِ الثقةِ، مُحاولةً طمسَ الحقيقةِ خلفَ ستارِ الادعاءاتِ الكاذبةِ.

كانتْ مهمتُنا، كجزءٍ من منظومةِ العدالةِ، أنْ نمُزقَ تلكَ الجواربَ الممزقةَ، وأنْ نكشفَ ما تخفيهِ تلكَ الأحذيةُ الفاخرةُ من زيفٍ. لجأنا إلى مَن بنى الجدرانَ، ووضعَ الأساساتِ، المقاولُ الذي شهدَ على حقيقةِ الأمرِ. وبشهادتهِ الصادقةِ، التي أكدتْ أنَّ الرجلَ هوَ من سددَ كلَّ التكاليفِ، وأنَّ المالَ كانَ منهُ وحدهُ، بدأتْ خيوطُ الحقيقةِ تتجلى.

لقد استمعتْ المحكمةُ إلى الشاهدِ، وإلى الأدلةِ، وإلى لغةِ الحقِّ التي لا تُخطئُها البصيرةُ. وأيقنتْ أنَّ العدلَ يجبُ أنْ يُقامَ، وأنَّ الثقةَ التي أُسيءَ إليها يجبُ أنْ تُستعادَ، ولو جزئياً. لقد قضتْ المحكمةُ للرجلِ بنصفِ الفيلا، وأمرتْ بتقسيمِ العقارِ، مُحملةً الطرفَ الآخرَ تكاليفَ التقاضي.

كانَ هذا الحكمُ، أيها الدفترُ الصامتُ، انتصاراً للعدلِ، وللحقيقةِ التي لا يمكنُ أن تُدفنَ طويلاً. إنهُ يُذكرنا دائماً بأنَّ المظاهرَ قد تخدعُ، وأنَّ النواياَ الحسنةَ قد تُقابلُ بالجحودِ، لكنَّ

القضاءَ، متى ما تحرّى الحقَّ، استطاعَ أنْ يُزيحَ الستارَ عن كلِّ ما هوَ زائفٌ، ليُظهرَ ما خفيَ من صدعٍ وتآكلٍ خلفَ أبهى الواجهاتِ. فليكنْ هذا درساً لنا جميعاً، أنَّ قيمةَ الإنسانِ لا تُقاسُ بما يملكُ ظاهراً، بل بما يحملُ في جوهرِهِ من صدقٍ وأمانةٍ، وأنَّ العدالةَ، حتى وهيَ تُصححُ خطأً في وثيقةٍ، أو تُعيدُ حقاً في ملكيةٍ، إنما تُعيدُ توازناً في ميزانِ الحياةِ كلهُ.

لينُ الأقدار

أيها الدفتر الصامت!؛

في صميمِ هذهِ المهنةِ، حيثُ نشهدُ قسوةَ الأيامِ وهيَ تنهشُ في قلوبِ البشرِ، نرى أيضاً كيفَ أنَّ يدَ العنايةِ الإلهيةِ تتدخلُ، وكيفَ أنَّ ميزانَ العدلِ يُقامُ، لِتتبدلَ الأحوالُ، وتلينَ القلوبُ القاسيةُ. اليوم، أُسجلُ لكَ قصةً تُذكّرنا بأنَّ "الأيامَ قد تشتدُّ علينا أحياناً وتُثقلُنا بقسوتها، لكنْ بفضلِ اللهِ تعودُ لِتلينَ بينَ أيدينا، فنحياها وكأنها مجردُ ذكرى من ماضٍ فات."

لقد أتتْني ذاتَ يومٍ، فتاةٌ صغيرةٌ، تحملُ في عينيها حزنَ اليتمِ، وفي صوتها رِقةَ من اعتادتْ على الظلمِ. كانتْ قد فقدتْ والديها في حادثٍ أليمٍ، ومباشرةً بعدَ ذلكَ، لمْ تلبثْ أنْ وجدتْ نفسَها وحيدةً في مواجهةِ أقربِ الناسِ إليها. هؤلاءِ الأقاربُ، الذينَ كانَ من المفترضِ أنْ يكونوا سندها وعضدها، حاولوا حرمانها من ميراثها، مُستغلينَ صِغرَ سنها وقلةَ حيلتها، مُعتقدينَ أنَّ حقها سيضيعُ في زحمةِ الإجراءاتِ وتعقيداتِ القانونِ.

كانتْ أيامها تشتدُّ عليها فعلاً، تائهاً بينَ الإجراءاتِ، مُثقلةً بهمومٍ لا تُطيقها نفسُ طفلةٍ. كانتْ ممتلكاتها، التي تركها والداها لِتُؤمنَ لها مستقبلاً، على وشكِ أنْ تبتلعها أطماعُ من لا يخافونَ اللهَ في اليتيمِ. في كلِّ مرةٍ أُقابلها، أرى تلكَ القسوةَ التي تُلقيها الأيامُ على كاهلها الصغيرِ.

لكنَّ العدلَ، أيها الدفترُ الصامتُ، لهُ جنودٌ لا ينامونَ. لقد تعقبنا خيوطَ القضيةِ بصبرٍ، قدمنا الأدلةَ، دافعنا عن حقها بإصرارٍ، مستندينَ إلى قوانينَ تُصانُ بها حقوقُ الضعفاءِ، وتُحفظُ كرامةُ الأيتامِ. القاضيُّ الذي نظرَ في القضيةِ، كانَ مثالاً للإنصافِ والاجتهادِ. لمْ يسمحْ لِتعقيداتِ الميراثِ، ولا لِقوةِ نفوذِ بعضِ الأطرافِ، أنْ تُؤثرَ على حكمهِ.

وبفضلِ اللهِ، جاءَ الحكمُ لِيكونَ كالنسيمِ الباردِ على قلبها المُتعبِ. قضتْ المحكمةُ بِكاملِ حقها في الميراثِ، مُعيدةً لها كلَّ ما حاولَ الظالمونَ سلبهُ. لقد كانَ انتصاراً عظيماً لِليتيمةِ، ولِحقوقها، ولِمبدأِ أنَّ العدلَ لا يموتُ.

وفي تلكَ اللحظةِ، تذكرتُ عبارتيَ هذهِ: "تعودُ الأيامُ لِتلينَ بينَ أيدينا". فبعدَ تلكَ الفترةِ من الشدةِ والقسوةِ، عادَ الأملُ يشرقُ

في عينيها. الفرحةُ التي ارتسمتْ على وجهها كانتْ أبلغَ من أيِّ كلماتٍ. لقد بدأتْ تحيا أيامها وكأنَّ تلكَ المعاناةَ، وتلكَ الشهورَ من الظلمِ، مجردُ ذكرى من ماضٍ فاتَ، طواها النسيانُ، أو باتتْ درساً في الصبرِ واليقينِ.

إنَّ هذهِ القضايا، أيها الدفترُ، هيَ ما يُثبتُ لي أنَّ مهنتنا ليستْ مجردَ تطبيقٍ لِقوانينَ جافةٍ، بل هيَ سعيٌ دائمٌ لإعادةِ الأملِ، ولِتليينِ قسوةِ الأقدارِ، ولِجعلِ العدلِ ركيزةً يُسندُ إليها كلُّ مَن ظنَّ أنَّ أبوابَ الحياةِ قد أُغلقتْ في وجههِ. فليُبارِكِ اللهُ في كلِّ يدٍ تُساعدُ يتيماً، وكلِّ قلبٍ يُنصفُ مظلوماً.

ثقلُ الاعترافِ... ومرارةُ الضمير

أيها الدفتر الصامت!؛

في هذهِ المهنةِ التي تُشرّحُ النفوسَ وتكشفُ خباياها، تُصادفُ أحياناً حالاتٌ لا تُقاسُ بِبنودِ القانونِ وحدها، بل تُوزنُ بِميزانِ الضميرِ الأثقلِ. اليومَ، جلستُ أمامَ موكلٍ، لمْ يكنْ حديثهُ عن تفاصيلِ الجريمةِ بقدرِ ما كانَ عن صراعٍ داخليٍّ يُنهكُ الروحَ، صراعِ الذنبِ، ومرارةِ العجزِ أمامَ صورةِ الذاتِ التي أُفسدتْ.

لمْ يكنْ موكليَّ يُدافعُ عن فعلٍ فحسبُ، بل كانَ يُصارعُ شعوراً عميقاً بالخزيِ والتدنيسِ. كلماتهُ لمْ تكنْ مجردَ اعترافٍ قانونيٍّ، بل كانتْ أنيناً لِروحٍ مُثقلةٍ بالخطايا. لقد لامستْني المعانيُ التي عبرّ عنها، وهوَ يتحدثُ عن شخصٍ أو مبدأٍ أعلى، مثّلَ لهُ النقاءَ والطهرَ، وها هوَ يشعرُ بالبعدِ عنهما. لقد بدتْ عليهِ رغبةٌ عميقةٌ في الاقترابِ منْ ذلكَ المثلِ الأعلى، لكنَّ شعوراً طاغياً بالخوفِ والذنبِ كانَ يمنعهُ، وكأنَهُ يتساءلُ كيفَ لَهُ أنْ يواجهَ نقاءً ورفعةً هوَ يشعرُ بِنقيضها في ذاتهِ.

كانَ هذا الشعورُ العميقُ بالدونيةِ يلفُّهُ. وكأنهُ يُبصرُ في نفسهِ عيباً لا يمُكنُ سترهُ، نجاسةً لا تُطاقُ. لقد عبرّ بلسانِ حالهِ عن خوفهِ منْ أنْ تكشفَ أفعالهُ ما في داخلهِ منْ عيوبٍ، وأنْ يذوبَ منْ خجلٍ لا يمُكنُ احتمالُهُ، لا سيما وهوَ يرى نفسه قد تنكّرَ لِصوتِ ضميرهِ واتّبعَ أهواءَهُ. إنهُ صراعٌ بينَ الذاتِ الحاليةِ الملوثةِ، والذاتِ المثاليةِ التي كانَ يوماً ما يُطمحُ إليها، أو المبدأِ الذي كانَ يُؤمنُ بهِ.

شعرتُ بمدى وطأةِ هذا الثقلِ عليهِ وهوَ يُعبرُ عن ذلكَ: لقد بدا أنهُ يرى نفسهُ مُلطخةً، لا تحتملُ ضياءَ الحقِّ، ولا تستحقُّ أنْ تكونَ قريبةً منْ مكانةٍ رفيعةٍ، وهوَ الغارقُ في براثنِ الشهوةِ والأنانيةِ. إنها صورةٌ تُجسدُ عُمقَ الشعورِ بالذنبِ، عندما تتجاوزُ تبعاتُ الفعلِ حدودَ العقوبةِ القانونيةِ، لِتنهشَ في صميمِ الروحِ.

كيفَ لهُ أنْ يُلاقيَ تلكَ المثلَ العليا، أو تلكَ الصورةَ النقيةَ لِذاتهِ التي خذلها، وهوَ الذي سارَ في دروبِ القسوةِ والابتعادِ؟ إنهُ لا يرى لِذاتهِ إلا مكاناً بعيداً، في الظلِّ، منحنياً خجلاً، راجياً أنْ تُدركهُ رحمةٌ ما، وأنْ يُكتبَ لهُ الغفرانُ من قوةٍ عليا يُؤمنُ بها، تلكَ التي أرسلتْ الأملَ رحمةً للعالمينَ.

إنَّ الاعترافَ، أيها الدفترُ الصامتُ، ليسَ مجردَ سردٍ لِلوقائعِ أمامَ محامٍ أو قاضٍ. إنهُ في جوهرِهِ، رحلةُ نفسٍ تُصارعُ ظلامَها، وتُحاولُ أنْ تُبصرَ بصيصاً من نورِ المغفرةِ أو التصالحِ معَ الذاتِ. إنَّ مهمتنا، كمحامينَ، تتجاوزُ الدفاعَ عن الحقوقِ الماديةِ، لِتمتدَّ إلى فهمِ هذهِ الصراعاتِ الروحيةِ العميقةِ، ولِنكونَ أذناً صاغيةً لِثقلِ الاعترافِ، وشهوداً على مرارةِ الضميرِ، عسى أنْ نُعينَ تلكَ الأرواحَ على إيجادِ طريقها نحو السكينةِ، ولو كانَ طريقاً طويلاً وشاقاً.

ضمير الزور

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، شهدتُ مشهدًا آخر من غرائب النفس البشرية في قاعة المحكمة، ما زلتُ أتحسس آثاره في روحي حتى هذه اللحظة. قضية نزاع على عقار، لا تختلف كثيرًا عن مئات القضايا التي تمرّ أمامي يوميًا، حيث تتشابك خيوط المصالح وتتنافس الحجج، لكن هذه المرة، كانت أطراف النزاع دماءً ولحمًا: شقيقان. "عامر" و"سالم"، ابنا الرحم الواحد، يقفان وجهًا لوجه في ساحة القضاء، يخاصم أحدهما الآخر على قطعة أرض، وكأن ترابها يزن أكثر من روابط الدم والسنوات التي جمعتهما.

جلس "عامر" على يساري، وجهه يحمل شيئًا من الغضب الممزوج بالحيرة، وعلى يميني "سالم"، الذي بدت على ملامحه مزيج من الإصرار والقلق الخفي. بدا التوتر يغلف الجو، كغيوم صيفية مثقلة بالرعد، تنذر بعاصفة لا تلبث أن تهطل. كلٌ منهما يدعي حقه الأصيل في العقار، ويقدم ما يظنه أدلة دامغة لدعم موقفه.

بدأ عرض الشهود. جاء فريق "عامر" أولاً. رجالٌ ذوو هيئات توحي بالوقار، بعضهم من كبار السن المعروفين في القرية، أقسموا بالله العظيم، وبصوت جهوري يملأ القاعة، أن ما سيقولونه هو الحق لا سواه، وأنهم سيشهدون بما رأوا وسمعوا دون تحريف. قدموا تفاصيل دقيقة، تواريخ محددة، وسردًا متكاملاً للأحداث، يصب كله وبشكل قاطع في صالح موكلّي "عامر". شعرتُ بشيء من الارتياح، فالشهادة تبدو متماسكة، مدعومة بقسم جليل، وتبعث على الثقة.

ثم حان دور فريق "سالم". وهنا، انهار كل شيء. تقدم شهودٌ آخرون، لا يقلون عن سابقيهم مظهرًا أو وقارًا، بل ربما بدوا أكثر خشوعًا عند أدائهم اليمين بنفس الإجلال، واضعين أيديهم على المصحف. لكن شهاداتهم كانت تناقض كل كلمة قيلت قبل قليل. تفاصيل الأحداث اختلفت تمامًا، التواريخ تضاربت بشكل لا يمكن التوفيق بينه، وسرد الوقائع اختلف جذريًا، ليقدم صورة مغايرة تمامًا، تصب بشكل مطلق في صالح "سالم".

القاعة صمتت للحظة، صمتٌ أثقل من أي ضجيج. صمتٌ يصرخ بما لا يقال. أدركتُ، وكل من في القاعة أدرك، بما فيهم

القاضي الذي ارتسمت على وجهه علامات الدهشة المختلطة بالأسى، أن أحد الفريقين قد حنث باليمين، وأن أحد الشقيقين قد أتى بشهود زور ليشهدوا كذبًا باسم الله. الفكرة كانت كصدمة كهربائية أخرى، لا تقل عن صدمة ملف "أحمد". كيف يمكن لأرواحٍ حَلَفَتْ بالله العظيم أن تكذب بهذا الشكل الصارخ، علنًا، وفي هذا المكان الذي يفترض أن يكون محراب العدالة ومأوى الحق؟ أيّ جرأة هذه على خالق الكون؟

جلستُ بعد انتهاء الجلسة، وصوت القسم المهيب يتردد في أذني، "أقسم بالله العظيم أن أقول الحق...". الحق! أي حق يتحدثون عنه؟ وأي قسم هذا الذي يتجاوزونه بهذه السهولة، كأنه مجرد كلمات جوفاء لا تحمل أي وزن أو قدسية؟ هل يتصور أحدهم أن ضميره سيعيش بسلام بعد هذه الخيانة العظمى للحقيقة وللذات؟

لكن السؤال الذي ظلّ ينهش في ضميري، ولا يزال، هو: هل يستطيع المرء أن يتعايش مع ضمير شهد الزور؟ كيف يعود أحد هؤلاء الشهود إلى بيته، ينظر في وجوه أبنائه، وهو يعلم أنه باع دينه وضميره من أجل بضعة دنانير، أو مجاملة، أو نصرة باطلة

لشخص؟ هل تُسكت ليالي الكذب والتعايش مع الإثم ضميراً بهذا الحجم؟ أم أن هناك نوعًا من النفوس اعتادت على التكيف مع هذا العبء، فأصبح الكذب لديها مجرد وسيلة لا غاية، لا تترك في النفس أثرًا، أو هكذا يتوهمون؟ هل تتصلب القلوب حتى لا تعود قادرة على الشعور بوخز الضمير؟

لا أملك إجابة قاطعة. لكنني أزداد يقينًا يومًا بعد يوم أن أغرب القضايا ليست تلك التي تكشف عن جريمة واضحة المعالم، بل تلك التي تفضح عتمة النفس البشرية وقدرتها الغريبة على خيانة أقدس ما فيها: ضميرها، والحقيقة ذاتها. هذه اليومية تضاف إلى سجلي، لا لتُبرز حنكة قانونية، بل لتؤكد أن الصراع الحقيقي يدور غالبًا في دهاليز الروح، حيث الصمت أعلى صوتًا من أي شهادة.

سراب الشهادة

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، لم تكن الجلسات أو القضايا القانونية هي ما شغل بالي، بل حديثٌ عابرٌ، ثقيلٌ بوقع الحقائق، عن واقعٍ أعرفه جيدًا، واقعٌ أعيشه بحد ذاتي كطالب دكتوراه، وإن كنتُ أمارس مهنة المحاماة التي تُعلي من شأني الظاهري. لقد كان الحديث عن "الدكتور المعطل"، هذا الكائن الذي يحمل لقبًا ثقيلاً، "دكتور"، وشهادةً رفيعةً، "دكتوراه"، لكنه يحيا على هامش الواقع، في منطقة رمادية بين الأمل واليأس، بين ماضٍ من الجهد ومستقبلٍ مجهول.

"ليس هناك من شخص متأزم في هذه البلاد أكثر من دكتور عاطل عن العمل." هذه الجملة ليست مجرد كلمات، بل هي صرخة مكتومة، وصفٌ دقيقٌ لحالة إنسانية مركبة تُشبه الجمر تحت الرماد. أتصور الضغوط التي تمارس عليه ككتلة صخرية لا ترحم: ضغط الفقر الذي لا يليق أبدًا بمن قضى زهرة شبابه وسنوات عمره في البحث والتحصيل، يكدح في صمت المكتبات وتحديات المختبرات، يتطلع إلى غدٍ أفضل. وضغط

الأسرة التي ترى فيه أملاً معلقًا، وتنتظر منه حصادًا لم يأتِ بعد، مما يولد إحساسًا بالخذلان ليس منه، بل من واقع لم ينصفه. أضف إلى ذلك ضغط السن الذي يتقدم دون أن يتقدم معه وضعه الاجتماعي أو المهني، فيشعر وكأن قطار العمر يفوت، تاركًا إياه في محطة الانتظار الأبدية، وضغط البحث المضني عن فرصٍ نادرة، وكأنه يطارد ظلاً.

وفي كل عام، تظهر بعض المناصب القليلة، كواحات سراب في صحراء قاحلة. تُفتح أمامه بعض الآمال، يرى فيها بصيص ضوء في نهاية نفق طويل، يدفعه ذلك إلى تجديد العزيمة التي خفت بريقها، تجهيز الملفات بغيرة جديدة، واستعادة الشغف الذي ظن أنه فقده. لكن هذه الآمال سرعان ما تتلاشى، كفقاعات الصابون، أو أحلام فجرٍ كاذب، بعد إعلان النتائج وفوز الفائزين، ليجد نفسه خارج الصورة مرة أخرى.

إن المناصب القليلة جدًا، مقابل كثرة المرشحين، موظفين وعاطلين على حد سواء، يجعل من الصعب جدًا على هؤلاء الحاصلين على الدكتوراه الحصول على منصب. إنه سباق محموم، لا يرحم الضعيف، تزيد من قسوته معايير الانتقاء

الغامضة، التي تفتقر إلى الشفافية، وتفتح الباب على مصراعيه للشكوك والتساؤلات حول النزاهة. وفي كل عام، تتزايد أفواج الدكاترة الخريجين حديثًا، يقتحمون الساحة بنفس الطاقة والآمال العريضة، ليزيدوا من حدة المنافسة، ويضيقوا الخناق أكثر فأكثر على من سبقهم بسنوات من الانتظار.

أتذكر منهم من ناقش أطروحته لسنوات طوال، أفنى فيها بصره ووقته، سهر الليالي الطويلة، وبذل جهدًا يفوق التصور، في المكتبات بين رفوف الكتب العتيقة والمختبرات المعقدة، ولا زال اليوم يعاني من "الشوماج" (البطالة)، تتآكل أحلامه وطموحاته عامًا بعد عام، ويتبدد شعوره بقيمة ما أنجزه. وهناك من كان اسمه يلمع، يتم انتقاؤه في اللوائح القصيرة، وكان يرى نفسه كمرشح واعد لمستقبلٍ مشرق، والآن لم يعد يظهر في لوائح الانتقاء، ولن يظهر غالبًا، لأن هناك مرشحين جددًا، بأطاريح أكثر حداثة، وملفات أكثر عصرية، تنافس على ذات الفرص الشحيحة كغنائم حرب.

ويبقى الدكتور المعطل يعيش في الوهم، يتشبث بآخر خيوط الأمل، يغذي روحه بفتات الوعود، ويفني عمره في الانتظار. إنها

مطاردة أشبه بمطاردة الساحرة في الأساطير القديمة: هدفٌ وهمي، يجري خلفه بغير طائل، مستنزفًا روحه وطاقته في سعيه وراء سرابٍ لا يرتوي منه أبدًا.

هذا المشهد، أيها الدفتر، يدفعني للتأمل بعمق في قيمة العلم والتحصيل في زماننا هذا. فما الفائدة من سنوات الدراسة الطويلة، والتفوق الأكاديمي، إذا كان المصير هو هذا القلق المستمر، وهذا الشعور المرير بالهدر والإهمال؟ إنه درس قاسٍ في الواقعية، يجعلني أتساءل عن معنى الإنجاز والتميز في ظل نظام لا يكافئ العلم كما يجب، ويترك عقولاً نيرة، قادرة على الابتكار والعطاء، تذوي في صمت الانتظار. إنه لغز آخر من ألغاز هذه النفس البشرية، تتجلى في الصبر المر، والأمل العنيد الذي لا يموت رغم كل شيء، واليأس الذي ينمو بصمت في قلوب حملت أثقل الألقاب وأثمن المعارف. إنه صمت آخر، أشد قسوة من صمت القضايا، لأنه صمت الأرواح التي تكسرت على عتبة الأحلام.

ليل الظلم

أيها الدفتر الصامت!

في عتمة الليل المحكية، يتردد نداءٌ غامضٌ من أعماقنا، يدعونا إلى التيه والضياع.

هذه الأبيات، التي طالما ترددت في أذني كصدى بعيد، وجدت لها اليوم تجليًا مريرًا في واقعة قضائية تجاوزت حدود قاعة المحكمة لتلامس جوهر العدالة والظلم، وتكشف عن هشاشة اليقين أمام بهتان الكذب. كانت قضية لم أكن طرفًا فيها بشكل مباشر، لكنها هزت أركان مهنتنا بأكملها، وألقت بظلالها على كل من يحمل لقب "قاضٍ" أو "محامٍ".

أتحدث عن قضية القاضي "يوسف". رجلٌ عرفناه بالنزاهة، بالصبر، وبشاشة الوجه التي لا تفارقه حتى في أحلك الظروف. كان يُضرب به المثل في استقامته وتفانيه في عمله، حتى أصبح اسمه مرادفًا للعدالة في منطقتنا. فجأة، وبغير سابق إنذار، عصفت به ريح الاتهام، قاسية كعاصفة شتوية في قلب الصحراء. اتهموه

بالرشوة، بقبض المال الحرام ليلوي ذراع الحق. الخبر نزل على الجميع كالصاعقة، وعلى روحه كقذيفة مدمرة.

لقد رأيتُ "يوسف" بعد الاتهام. كان وجهه شاحبًا، عيناه تحملان تعب سنوات لم تُبنَ في أيام، بل في لحظات خذلان. بدا كشخص فقد بوصلته في بحر مظلم، يصارع أمواج التيه والضياع التي تحدثت عنها الأبيات. صوت المجهول، صوت الشائعات، صوت أصابع الاتهام التي لا ترحم، كان يعلو حوله، يخنق صوته هو، صوت الحقيقة البسيطة التي كان يصرخ بها: "أنا بريء". كان هذا الصمت هو الأقسى؛ صمت من ظننتهم سندًا له، وصمتُ العدالة التي بدت معلقة على خيط رفيع.

فقد "يوسف" نومه، هدأ ضحكه، وتجعدت ملامحه التي كانت توحي بالبساطة والطمأنينة. انسحب من الحياة العامة، اختفى من الأنظار، تاركًا سمعته التي بناها على مدار عقود تنهار تحت وطأة اتهامٍ لم يرتكبه. كان يشعر بأن الأرض تبتلعه، وأن السواد يلتف حوله من كل جانب، يحجب عنه أي بصيص أمل. لقد كان في قلب "ليل الظلم"، حيث تتلاشى الفروق بين الضحية

والجلاد في أعين الناس، وحيث الكلمة الباطلة تُصبح حقيقة راسخة.

القضية طالت، تعقدت خيوطها، وبدا وكأنها لن تنتهي أبدًا. الشكوك تراكمت كالغبار، وتلصقت به كوصمة عار. لكن، لأن للحق صوتًا لا يخفت مهما طال ليل الظلم، ولأن العدالة قد تتأخر لكنها لا تُهزم، بدأت خيوط الحقيقة تتكشف ببطء، ببطء مؤلم. ظهرت الأدلة تباعًا، الواحدة تلو الأخرى، لتثبت أن الاتهام كان ملفقًا، مؤامرة دُبرت بليل لإسقاط رجل نظيف اليد والقلب. لم تكن رشوة، بل فخٌ نُصب بإحكام.

لقد أُعلن عن براءته في النهاية. انتصارٌ للحق، لكنه كان انتصارًا باهظ الثمن. فماذا عن تلك الليالي التي قضاها في وحشة الاتهام؟ ماذا عن نظرات الشك التي طاردته؟ ماذا عن الأثر الذي تركه هذا البهتان في روحه التي كادت أن تتلاشى في "التيه والضياع"؟ لقد عاد القاضي "يوسف" إلى الحياة، لكنه لم يعد القاضي "يوسف" الذي عرفناه. عيناه تحملان حزنًا عميقًا، وحكمته ازدادت مرارة.

هذه القضايا، أيها الدفتر، تُذكرني بأن العدالة ليست مجرد قوانين ومحاكم، بل هي صراعٌ دائم بين الحقيقة والزيف، بين النور والظلام في النفس البشرية. إنها تكشف عن الجانب المظلم فينا، القدرة على الإيذاء والبهتان، لكنها أيضًا تُظهر مرونة الروح وقدرتها على الصمود حتى يتجلى الحق. "ليل الظلم" قد يطول، لكن ضوء الفجر لا بد أن يشرق، وإن كان بعد معاناةٍ لا تُنسى. هذا ما تعلمته اليوم.

ثمن الجحود

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، لم تكن قضيتي المطروحة هي ما أثقل كاهلي، بل قصةٌ سمعتها في استراحة المحامين، قصةٌ تضرب في عمق النفس البشرية، وتكشف عن أي حدود يمكن أن يصل إليها الجحود، وعن أي صورة يمكن أن تتخذها العدالة، حتى لو كانت متأخرة. إنها قصةٌ تكسر القلب، وتدفع للتأمل في أغوار العلاقات الإنسانية الأكثر قدسية.

كانت القصة عن فتاةٍ يتيمة الأم. لم تعرف حنان الأمومة، لكن والدها كان لها الأب والأم والسند والعالم كله. رجلٌ وهب حياته لتربيتها، وظل بلا زواج بعد وفاة زوجته، مكرسًا كل ذرة من وجوده لفلذة كبده. كبرت الفتاة في كنفه، محاطةً بحبه وعطفه الذي لا ينضب، حتى أصبحت شابة يافعة. ومن فرط حبه، وحرصه على مستقبلها، كتب لها بقعة أرضية باسمها، قطعة أرضٍ كانت حصيلة كدّه وشقاء عمره. لم يكتفِ بذلك، بل بنى عليها

فلتين فخمتين. سكن هو في واحدة، وأعطاها الثانية، هديةً خالصةً، عنوانًا لمحبته اللامحدودة وعطاءه الذي لا حدود له.

المشهد الذي يكسر الروح يبدأ هنا، أيها الدفتر. بعد زواج الفتاة، وبدلاً من أن تكون سندًا لوالدها في شيخوخته، أو حتى مجرد اعتراف بسيط بجميله، أخبرت والدها، وبكل برودٍ وجفاء، أن الأرض التي عليها فيلته تعود إليها قانونًا. وعليه أن يدفع ثمن كرائها، أو أن يبيعها لها. وكأن هذا المنزل الذي بناه بدم قلبه، والذي ضمّ ذكريات عمره كله، أصبح فجأة عبئًا عليه، أو ملكية لا يملكها!

كان الأب يدفع لها ثمن الإيجار، كل شهر، بكل كمدٍ وحسرة. كان قلبه ينزف، لا لأجل المال، بل لأجل الجحود الذي رأى، ولأجل الجرح الغائر الذي تركه هذا الطلب في روحه الطيبة. كان يعلم، ويقين المعرفة يمزقه، أن زوجها هو من يحرضها، يزرع فيها بذور الطمع والأنانية، ويشجعها على هذا العقوق الصارخ. ظل يدفع لها، وصوت الأنين الخفي يتردد في داخله، حتى وافته المنية وهو يحمل مرارة هذا الجحود، وحسرة فراق ابنته له، ليس بالموت، بل بالروح.

الغريب، والمؤلم في آن واحد، أن الفتاة لم يأنبها ضميرها. لم تشعر بوخزة ندم، لم ترَ في فعلها أي قسوة. استمرت في حياتها، وكأنها لم ترتكب ما يخدش أبسط معاني البر والإنسانية. وكأن القلب يمكن أن يتصلب إلى هذا الحد، فلا تشعر فيه نيران الجحود.

لكن الحياة، أيها الدفتر، لا تنسى، والعدالة قد لا تأتي دائمًا من قاعات المحاكم. ففي آخر المطاف، وبعد سنواتٍ لم أدرِ عددها، تطلقت الفتاة من زوجها. وكما جاءت، ذهبت. لم يكن هذا الانفصال هينًا، فقد استوى الزوج على نصف ممتلكاتها. نصف الفلل، نصف الأرض، كل ما بنته وطمعت فيه، ذهب كرماد في مهب الريح.

كان عقابًا عادلاً، أيها الدفتر. هكذا همست لنفسي، وهكذا يهتف الضمير بداخلي. إنها عدالة سماوية، عدالة لا تخضع لنصوص القانون، بل لسنن الكون. من يزرع الجحود يحصد الحسرة، ومن ينسى فضل الآخرين، تُنسى منه كل نعمة. لقد كانت تلك الفتاة ترى في أبيها مصدرًا للرزق لا مصدرًا للحب، ورأت في عطائه حقًا لها لا منة. فجاءها من يرى فيها مصدرًا

للمال، وانتزع منها ما طمعت فيه. قصةٌ مؤلمة، لكنها تحمل في طياتها حكمة بالغة، تذكّرنا بأن لكل فعلٍ ثمنًا، وأن ثمن الجحود قاسٍ لا يرحم.

ثقة مغدورة

أيها الدفتر الصامت!

لا تظنّ أن نجاحك في خداع من وثق بك دليلُ ذكاءٍ؛ بل هو علامةُ خبثٍ فيك، وبراءةٍ فيمن آمنَ بك. هذا هو الفارقُ الحقيقي. ليتنا نُبعدُ أرواحنا عن خبث النفوس.

اليوم، أيها الدفتر، لم تكن أروقة المحاكم، ولا ملفات القضايا الجافة، هي ما شغل فكري فحسب، بل مرارة الهزيمة. هزيمةٌ لم تكن قضائيةً فحسب، بل كانت هزيمةً لليقين، وطعنةً في مبدأ الثقة الذي تُبنى عليه العلاقات الإنسانية. إنها قصةٌ حُكيت لي أولاً، ثم أصبحت قضيتي، قضية الطرف المخدوع ضد قريبه، قضيةً خسرتُها، وتركت في روحي أثرًا عميقًا.

كانت القصة عن قريبين، تربطهما وشائج الدم، وقصص الطفولة المشتركة، وذكريات بيتٍ واحد وطبقٍ واحد. كلاهما نشأ معًا، وتقاسما الأحلام والضحكات. لكن الأيام دارت، وكشفت عن معدنين مختلفين. كان أحدهما ذا قلبٍ طيبٍ، يثق بمن حوله، لا سيما أفراد عائلته، ويرى في القربى حصنًا منيعًا، لا يمكن

اختراقه بأي سوء. أما الآخر، فكانت عيناه تتجهان نحو المادة، نحو ما يملكه الآخرون، وبدأ يخطط في صمتٍ خبيثٍ لامتلاك ما ليس له بحق.

تركزت القضية حول قطعة أرضٍ ورثها الطرف المخدوع عن والديه. أرضٌ مباركة، كانت مصدر رزق العائلة وميراث الأجيال. استغل القريب الخادع طيبة الطرف المخدوع وثقته العمياء به. بدأ ينسج خيوط الخداع ببطء، يقدم المشورة المسمومة، يثير الشكوك حول بعض الوثائق القديمة، يوهم الطرف المخدوع بأن هناك تعقيدات قانونية لا تُحل إلا بتصرفات معينة، تصرفات تهدف في جوهرها إلى نقل ملكية الأرض أو جزء منها إليه، أو استغلالها بطرق تضر بمصلحة الطرف المخدوع بشكل لا رجعة فيه.

لقد كان الطرف المخدوع يصدق كل كلمة. كيف لا يصدق قريبه، الذي نشأ معه، وتقاسما الحياة بكل ما فيها؟ لم يخطر بباله أن قلبًا من دمه يمكن أن يحمل كل هذا المكر والخباثة. كان يرى فيه السند، ولم يرَ فيه الذئب الكامن في ثوب الحمل. وقع الطرف المخدوع في الفخ، خطوةً بخطوة، وبوثائق مُدبرة، استوى القريب

الخادع على جزء كبير من ممتلكات قريبه، مستغلاً طيبته وثقته المطلقة، وبراعة في التلاعب بالقانون.

حين لجأ إليّ الطرف المخدوع، كانت روحه ممزقة، ليس فقط بسبب خسارة المال أو الأرض، بل بسبب طعنة الغدر. كانت صدمته أقسى من أي خسارة مادية. كيف لشخصٍ وثق به حد العمى، أن يكون هو نفسه من يطعنه في الظهر؟ هذا هو بيت القصيد الذي ظل يتردد في ذهني طوال هذه القضية: لا تظنّ أن نجاحك في خداع من وثق بك دليلُ ذكاءٍ؛ بل هو علامةُ خبثٍ فيك، وبراءةٍ فيمن آمنَ بك. هذا هو الفارقُ الحقيقي.

لقد قاتلتُ في هذه القضية بكل ما أوتيتُ من حجة وقانون. جمعتُ الأدلة، حاولتُ إثبات سوء النية والتلاعب، لكن خبث الخصم كان محبوكًا، وثغرات القانون سمحت له بالتستر خلف ظاهر الإجراءات. كانت أدلتي تستند إلى روح العدالة، لكن الحكم يستند إلى نصوصٍ جامدة وتفسيراتٍ قد تغفل الجانب الأخلاقي. في النهاية، أيها الدفتر، خسرنا القضية. خرج الطرف الخادع منتصرًا، أو هكذا بدا. وشعرتُ أنا، كمحامٍ، بمرارة الهزيمة، لا لقضية، بل لمبدأ.

هذه القصة، أيها الدفتر، ليست مجرد نزاع على عقار، بل هي مرثية للثقة التي تموت، وللروابط التي تتمزق. إنها تُبرز الجانب الأكثر قتامة في النفس البشرية، القدرة على خيانة أقرب الناس، واستغلال أطهر المشاعر من أجل مصالح دنيوية زائلة. "ليتنا نُبعدُ أرواحنا عن خبث النفوس." هذه ليست مجرد دعوة، بل هي تنهيدة يأسٍ من واقعٍ يختبر إيماننا بالخير في البشر.

فماذا يبقى لإنسانٍ فقد ثقته في دمه؟ وأي قيمة لمكسبٍ بُني على أنقاض الأخوة والوفاء؟ إنها قضايا لا تُحسم دائمًا في المحاكم، بل في ضمائر من يعيشون بها، وفي سجلات الأيام التي لا ترحم، والتي قد تُثبت أن لكل فعلٍ رد فعل، وأن لكل خيانةٍ ثمنًا، حتى لو لم يُدفع على مرأى من الجميع. تبقى العبرة، ويبقى السؤال: هل تستطيع النفس الخبيثة أن تنام قريرة العين بعد أن دمرت ثقة قلبٍ طيب؟ ربما. ولكنها حتمًا لا تعيش في سلام.

ضباب الروح

أيها الدفتر الصامت!

البحرُ كقصيدةٍ لا تنتهي، وروحي تتجلى بلونٍ خفيفٍ، نمتزجُ مع ضبابِ الفجر في صباحات المصيف الهادئة.

ها أنا ذا، أيها الدفتر، أجلس على شرفة تطل على امتداد زرقة لا متناهية، بعيدًا عن صخب قاعات المحاكم وضجيج الملفات. هي عطلةٌ تأملية، وليست مجرد إجازة للاسترخاء. أرنو إلى الأفق، محاولاً أن أجد فيه صفاءً لم تتمكن سنوات العمل من إحضاره إلى روحي. بعد كل تلك القصص التي شهدتُها، من جحودٍ وخبثٍ وظلمٍ يرتكبه البشر في حق بعضهم البعض، باتت نفسي بحاجة ماسة إلى تنفسٍ عميق، إلى محاولة لتفكيك خيوط التعقيد التي تُحيكها النفس البشرية.

في هذه الصباحات الباكرة للمصيف، عندما يكون البحر هادئًا، والنسيم عليلاً، ويتلاشى الحد الفاصل بين السماء والمياه في طبقة من الضباب الرقيق، أجد نفسي أستحضر تلك الأبيات التي تصف المشهد: "البحرُ كقصيدةٍ لا تنتهي، وروحي تتجلى

بلونٍ خفيفٍ، نمتزجُ مع ضبابِ الفجر في صباحات المصيف الهادئة." وكأن هذا الضباب هو أنا، وهو البحر، وهو كل ما أحمله من أسئلة بلا إجابات.

البحر هنا ليس مجرد ماء، بل هو قصيدةٌ عظيمة، تتدفق كلماتها أمواجًا، وتتراقص حروفها رغوةً. قصيدةٌ صامتة، عميقة، كالحياة ذاتها. إنها تذكرني بأن هناك جمالاً وهدوءًا، عُمقًا وسعة، تتجاوز حدود الجدران الأربعة للمحكمة. وروحي، التي غالبًا ما تُثقلها هموم الناس وتتلطخ بآثار الشر الذي أشهده، تحاول أن تتجلى هنا بلونٍ فاتح، لونٍ خفيفٍ، لونٍ يعكس النقاء الذي أفقده عملي يومًا بعد يوم. أحاول أن أنزع عني رداء اليأس، أو على الأقل أن أجعله شفافًا، ليسمح للنور بالنفاذ.

هنا، في هذا الضباب اللطيف، تختلط كل الأشياء. تتلاشى الحدود. لا أرى سوى ظلالٍ باهتة للمراكب العابرة، وللشاطئ البعيد. وكأن هذا الضباب يمثل حالة ذهني الآن؛ محاولاً أن يذيب كل تلك الخطوط الفاصلة بين الخير والشر، بين الضحية والجلاد، بين العدل والظلم، التي تبدو واضحة المعالم في أوراق القضايا، لكنها تتبخر في عُمق التأمل. هل هو هروب من وضوح

الحقائق المؤلمة؟ أم محاولة لإيجاد نوع من السلام في هذه الضبابية، قبولاً بأن الحياة ليست دائمًا سوداء أو بيضاء؟

إنني أمزج روحي مع هذا الضباب. أصبح جزءًا منه. أصبح أنا الضباب الذي يحتضن البحر في الصروحات الباردة، لا يظهر فيه شيء بوضوح، ولكن كل شيء موجود. ربما هذا هو ما أحتاجه الآن. ألا أرى الأمور بوضوح صارخ يمزق الروح، بل أن أراها في تداخلٍ يمنحني مساحة للتنفس، للتأمل، للتعافي.

ولكن، حتى في هذا الضباب الساكن، لا تزال أصداء "غرائب النفس البشرية" تتردد. قسوة الروح، جحود الأبناء، غدر الأقرباء، ظلم الاتهام، مرارة الدكتور المعطل... كل هذه القصص تتسلل كخيوط رفيعة عبر الضباب، لتذكرني بأن هذا الهدوء مجرد استراحة مؤقتة. فالعالم هناك، خلف هذا الضباب الجميل، لا يزال يغلي بصراعاته. لكني هنا، أحاول أن أُعيد ترتيب فوضى الروح، وأستجمع قواي، لعلي أعود أكثر قوة، وأكثر تفهمًا لتلك الضبابية التي تلف جوهر الإنسان.

ذكاء الطيب

أيها الدفتر الصامت!

قد يرى البعضُ طيبتَك غباءً، لكنهم يجهلون أنك تتعاملُ معهم بقدرِ ما يستحقون من استغباءٍ مُتقنٍ.

اليوم، أيها الدفتر، مررتْ عليّ قضية طلاق، لم تكن مجرد تفكك لأسرة، بل كانت مرآةً عاكسةً لخبث النفس وطمعها، ولحكمةٍ خفيةٍ تتجاوز دهاليز المكر. لقد كانت قضية الزوج، الرجل الذي ظلّ يمثل لي، حتى اللحظة الأخيرة، نموذجًا للصدق والأمانة، حتى في أروقة المحاكم التي قلما نرى فيها هذه الصفات بوضوح.

كان الزوج رجلاً بسيطًا في تعامله، شفافًا في أقواله، يؤمن بأن الصدق هو أقصر الطرق، حتى في العلاقة الزوجية. لم يكن يُخفي شيئًا عن زوجته، بل شاركها كل تفاصيل حياته المالية، مؤمنًا بالشراكة الحقيقية. عاشا سنواتٍ طويلةً، بنيا خلالها حياةً بدا للجميع أنها مستقرة وهادئة. لكن خلف هذا الهدوء، كانت تنمو بذرة الطمع في نفس الزوجة.

فجأة، وبدون سابق إنذار، رفعت الزوجة دعوى الطلاق. لم تكن الأسباب المعلنة مقنعة، بل كانت مجرد ستارٍ باهتٍ لهدفها الحقيقي: الحصول على أكبر قدر ممكن من أموال الزوج. لقد ظنت أن طيبته وشفافيته كانت غباءً يمكن استغلاله، وأنها ببعض الحيل القانونية ستتمكن من "التفوق" عليه، وتُخْرج من هذه الزيجة بثروة لم تشارك في بنائها إلا بالاسم.

لقد دخلتُ هذه القضية مدافعًا عن الزوج، وقلبي يعتصر ألمًا على هذا النوع من الخيانة الزوجية. كانت الزوجة وفريقها يعتقدون أنهم الأكثر ذكاءً، وأن بساطة الزوج ستكون نقطة ضعفه التي يستطيعون اختراقها. كانوا يرون صراحته في كشف تفاصيله المالية غباءً، يرون أمانته في التعامل معها دليلاً على سذاجته.

لكن المحكمة، أيها الدفتر، كان لها رأيٌ آخر. وبعد جلساتٍ مطولة، ودراسة مستفيضة للأدلة، التي قدمها الزوج بشفافية كاملة، لم تُنصف الزوجة في طمعها. حكمت المحكمة بمبلغٍ قليلٍ جدًا للزوجة، بالكاد يستر احتياجاتها الأساسية، بينما كان التعويض الذي مُنح للزوج مقبولاً، ومُبررًا، بل وعادلاً بشكلٍ مدهش. لقد أنصفت المحكمةُ الرجلَ الصادق.

شعرتُ بالارتياح، لا لانتصاري القضائي فحسب، بل لانتصار مبدأٍ ظل يُهمس لي به طوال القضية: "قد يرى البعضُ طيبتَك غباءً، لكنهم يجهلون أنك تتعاملُ معهم بقدرِ ما يستحقون من استغباءٍ مُتقنٍ." هذا ما حدث تمامًا. الزوج لم يكن غبيًا، بل كان طيبًا وصادقًا. طيبته هذه هي التي كانت مصدر قوته الحقيقية. فشفافيته وأمانته في الكشف عن كل شيء لم تترك لزوجته مجالاً للمناورة، أو لاختلاق ادعاءات كاذبة يصعب دحضها. لقد كان يتعامل معها "باستغباء" يليق بطمعها، وكأنه يترك لها الحبل على الغارب، وهي لا تعلم أن الحبل نفسه سيُطبق على عنق خططها.

هذه القضية، أيها الدفتر، تُذكرني بأن الذكاء ليس دائمًا في المكر والخداع، بل أحيانًا يكمن في البساطة المطلقة، في الصدق الذي يُفاجئ الخبيث لأنه لا يتوقعه. إنها قصة تُعلي من شأن النقاء في عالمٍ يقدس الدهاء. لم تُعاقَب الزوجة بالقانون فحسب، بل عُوقبت بفشل خطتها التي بُنيت على سوء الظن والجشع. أما الزوج، فخرج من هذه التجربة الموجعة، ليس فقط بتعويضٍ مالي، بل بدرسٍ عميقٍ في الحياة، وبإثباتٍ أن الطيب لا يُهزم

دائمًا، وأن للصدق قوةً لا يدركها أصحاب النفوس الخبيثة. ربما لا يرى البعض ذلك بوضوح، لكنه حقيقةٌ تشرق في ظلام الظلم، كضوءٍ خافتٍ، لكنه حقيقي.

إيمان راسخ

أيها الدفتر الصامت!

على الرغم من غمر التقنية حياتنا، لا تزالُ يدايَ تشتاقان للقلمِ والورق. وفي يقينٍ راسخٍ، رغم أن القانون صار خادمًا للاقتصاد، أُناشدُ الأخلاقَ لتُنجيَ سيادته. وأُومنُ بأن الخيرَ سيُعلي رايتَه على الشر، وأن الباطلَ مهما علا، مصيرهُ الزوالُ، فالحقُّ وحدَهُ ما يبقى.

نعم، أيها الدفتر، أعترف لك بذلك، وبكل صدقٍ يخرج من أعماقي. في هذا العصر الذي يلهث فيه الجميع وراء أحدث التقنيات، حيث الشاشات اللامعة تحل محل الأوراق، وأصوات لوحات المفاتيح تخفت أمام حفيف القلم، لا أزالُ رجلَ قلمٍ وكتبٍ ورقية. أجد في ملمس الورق، في خشخشة القلم وهو يخط الحروف، راحةً وطمأنينةً لا يمنحها لي جهازٌ إلكتروني. أحب أن أكتب كل شيء باليد، أجد في ذلك اتصالاً مباشرًا مع الفكرة، كأن الحرف يخرج من روحي مباشرةً إلى الورق، دون

وسيط. ربما هي عادةٌ قديمةٌ، أو تمسكٌ بجوهر الأشياء في زمنٍ يُقدس السرعة والتغيير.

وهذا الاعتراف يمتد إلى ما هو أعمق من مجرد عادةٍ شخصية. فمع كل قضيةٍ أراها، ومع كل صراعٍ أشهده بين البشر، يتأكد لي يقينٌ مؤلمٌ: أن القانون، الذي أفنيتُ عمري في دراسته وتطبيقه، أصبح في كثيرٍ من الأحيان مجرد خادمٍ وحارسٍ للاقتصاد والمال. أراه أحيانًا أداةً في أيدي الأقوياء، يُطوى ويُفسر ليُناسب جشع الفاعلين الاقتصاديين، بدلًا من أن يكون سيفًا للعدالة يقطع رقاب الظلم والباطل. هذا الإدراك، أيها الدفتر، مؤلمٌ ومُحبطٌ لروحٍ آمنت بسيادة القانون كدرعٍ للحماية.

هذا الإحباط، أيها الدفتر، لم يدفعني إلى اليأس، بل دفعني إلى الاستنجاد بالأخلاق. أراها الملجأ الأخير، والحصن المنيع الذي يمكنه إنقاذ سيادة القانون من براثن هذا الجشع المستشري. الأخلاق هي الروح التي يجب أن تسكن جسد القانون، هي البوصلة التي توجهه نحو الحق الأصيل، لا نحو المصالح الزائفة. أُومن بأن القيم الإنسانية النبيلة، كالعدل والإنصاف والرحمة، هي

وحدها القادرة على إعادة التوازن، وإعادة القانون إلى مساره الصحيح كخادمٍ للناس جميعًا، لا لفئةٍ دون أخرى.

وأعترف لك يقيناً، وبالرغم من كل تلك المآسي التي رأيتها، وكل الخيبات التي عشتها، وبكل الشواهد التي تُثبت عكس ذلك في بعض الأحيان، بإيماني الراسخ أن الخير ينتصر في نهاية المطاف على الشر. قد يطول الليل، وقد يُظلم الباطل، وقد يتزايد منسوب أهله في كل مكان، وقد يبدو أنهم المنتصرون في جولاتٍ عدة، لكنني أُومن بأن ما بني على باطل فهو باطل، وأن أساساته واهيةٌ لا محالة. وأن الباطل، مهما علا شأنه وتضخم حجمه، مصيره الزوال.

هذا الإيمان ليس سذاجةً، أيها الدفتر، بل هو قناعةٌ تتغذى من عمق التجربة، وتترسخ كلما رأيتُ كيف تُكشف الأسرار، وتُهدم المخططات الخبيثة، وكيف يعود الحق إلى نصابه، ولو بعد حين. أرى في كل قضيةٍ أشارك فيها، حتى تلك التي أخسرها، درسًا في هذه الحقيقة الخالدة: "لا يصح إلا الصحيح." قد تكون المسيرة شاقة، والطريق وعرة، والظلام كثيفًا، لكن نور الحقيقة لابد أن يسطع في النهاية، ليُبدد غيوم الباطل، وليُثبت أن جوهر

الخير هو الأبقى والأقوى. هذا الإيمان هو ما يُشعل شمعتي في ظلمة أيامي، ويُعينني على الاستمرار.

فخر العطاء

أيها الدفتر الصامت!

وسط كل تلك الظلال التي ألفتها في حياتي، من قضايا متشابكة ونفوسٍ مُتقلبة، يأتي اليوم ما يُنعش الروح ويُشعل قنديل الأمل. لا أصدق أنني أكتب هذه الكلمات بقلبٍ يفيض فخرًا وبهجةً كهذه، بعد كل ما عاناه هذا الدفتر من حكايات الألم والجحود. فبعد مرور أيامٍ على الحدث، لا تزال أصداء حفل التميز الذي نظمته المديرية الإقليمية لوزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة بتنغير، حاضرةً بقوة في الذاكرة والوجدان، وكأنها نغمٌ شجيٌ يمسح عن الروح غبار التعب.

كان لي شرف الاطلاع على صورٍ ومقتطفات من هذا الموعد التربوي الرفيع الذي احتضنه المركز الثقافي بتنغير. وما أسعدني وأثلج صدري، هو شرف الحضور والمشاركة الذي كان لتلاميذ مدرسة أيت بوحدو دادس. تلك المدرسة التي أعرف موقعها في أعماق الجنوب الشرقي، حيث التحديات جمة، وحيث الحاجة إلى النور والعلم أكبر. لقد عبرّ هؤلاء التلاميذ الصغار عن طاقاتٍ

كامنةٍ مذهلة، وأبانوا عن حسّهم الإبداعي المتفرد، وعن انضباطهم المتميز الذي يُبشر بمستقبلٍ مشرق. رؤية وجوههم المشرقة، وهم يقطفون ثمار جهدهم، كانت أبلغ ردٍ على كل شكٍ أو يأسٍ قد يتسلل إلى النفس.

إنها لحظاتٌ بهيجةٌ، ستظل شاهدةً على مسارٍ حافلٍ بالعطاء والتألق. لم يكن هذا التميز ليتحقق لولا تضافر جهود أيادٍ بيضاء، آمنت بالرسالة ووهبت من وقتها وجهدها. أقف احترامًا وتقديرًا لكل من ساهم في إنجاح هذه المشاركة، من أطرٍ تربويةٍ وتلاميذ وشركاء.

الشكر موصولٌ بصدقٍ لجمعية أيت بوحدو للتنمية القروية والبيئة على توفير النقل المدرسي، وهو دعمٌ حيويٌ يكسر حواجز البُعد ويفتح أبواب العلم. وتقديري لجمعية أمهات وآباء وأولياء التلاميذ على المواكبة والمرافقة التربوية طيلة أطوار هذا النشاط، فدورهم لا يقل أهمية عن دور المدرسة ذاتها.

كما أن الشكر موصولٌ كذلك لكل السادة الأفاضل والسيدة الفاضلة الذين ساهموا في هذا الإنجاح، من الكفاءات الإعلامية

والتربوية وخدمات النقل. كلٌ منهم وضع بصمته، صغيرةً كانت أم كبيرة، في بناء هذا الصرح من التميز.

هذه الصور، أيها الدفتر، تمنحني إيمانًا متجددًا بأن الخير في هذه البلاد لا يزال قويًا، وأن هناك من يعمل في صمت، يزرع بذور الأمل والعلم، ليحصد أجيالاً مُبشرةً بالمستقبل. إنها دروسٌ عظيمةٌ من خارج قاعات المحاكم، دروسٌ في العطاء، في الانتماء، وفي القدرة على تحقيق التميز رغم كل التحديات. فليست كل القصص محكمة، وليست كل النفوس مظلمة، وهناك دائمًا فخرٌ يستحق أن نُسجله هنا، في صفحاتك الصامتة.

نداء الطفولة الخفي

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، لم أجد نفسي منشغلاً في المحكمة بقضيةٍ معقدةٍ أو نزاعٍ على ملكية، بل كانت جلسةٌ لأسرةٍ تهاوت أركانها، توجت بتلاوة رسالةٍ فريدةٍ. لم يخطّها قلم محامٍ حصيف، ولم يُصغها قانونيٌّ متمرسٌ، بل كانت من صنع يدٍ غضّةٍ، وقلبٍ غضٍّ يُعاني من مرارة الفراق. تلك الرسالة، الموجهة من طفلٍ إلى والديه اللذين اختارا درب الانفصال، اخترقت جدار الصمت في القاعة لترسو عميقًا في وجداني.

ابتدأت الكلمات بنداءٍ مؤثر: "أمي، أبي... أنا لستُ سببَ فراقِكما، بل أنا نتيجتُهُ التي تُعايشُ هذا التحولَ كلَّ يوم. فلتَقرأاها بقلبي قبلَ عينيكما." كانت هذه البداية صرخةً خافتةً لكنها ذاتُ صدىً عميق، تجسدُ صوتَ البراءةِ الذي يتردُ في صدورِ آلافِ الأطفالِ ممن يعيشونَ مرارةَ الانفصال. تُبرزُ الأبحاثُ النفسيةُ الدورَ الحاسمَ لدعمِ الوالدينِ بعدَ الطلاقِ في تكيفِ الطفلِ نفسيًا، خصوصًا حينَ يُعاملُ بالتقديرِ ولا يُتخذُ أداةً للصراعِ بينهما.

لقد احتوت الرسالة على سلسلةٍ من الالتماسات، كل نقطةٍ فيها كطعنةٍ خفيةٍ في ضمير الكبار. كانت طلباتٌ بسيطةٌ في ظاهرها، لكنها عميقةُ المعنى في جوهرها. فالطفولةُ لا تُدركُ تعقيدات الانفصال، لكنها تشعرُ بوطأة التغيير كلّ يومٍ يمر. طلبَ ذلك الصغيرُ ألا يُستخدمَ وسيطًا بينهما لنقل الأخبار، وألا يُسمعَ كلامًا سيئًا عن أحدهما، لأنه يُحبهما معًا، مهما تباينت دروب الكبار.

تمنّى أن يشعرَ بالأمانِ حينَ يراهما يتصرفانِ باحترامٍ متبادل، حتى بعد زوال رباط الزوجية. يا له من حلمٍ بالاحترام النبيل، بسيطٍ وعظيمٍ في آنٍ واحد! وأن يُسمحَ له بالاحتفالِ بأعيادِه ومناسباتِه في جوٍّ هادئٍ، بعيدًا عن التوتر والمشاحنات، وكأن فرحتهُ رهينةٌ بسلامِهما الداخلي.

والأقسى، أيها الدفتر، كان التماسُ الطفلِ ألا يُجبرَ على الاختيارِ بينَ والديه. فهذا الاختيارُ يمزّقهُ من الأعماقِ، يُقسمُ ولاءَهُ، ويُشعرهُ وكأنَهُ خائنٌ لأحدهما. كما طلبَ أن يُمنحَ وقتًا كافيًا مع كلّ منهما، وألا يساورهُ شعورٌ بأنهُ مجردُ "زائرٍ" في

حياتِهما. وأن يُغدقَ عليهِ الحبُّ الصادقُ لا الهدايا التي تُشترى بها المشاعرُ.

لقد ناشدَ هذا الصوتُ النقيُّ أن يُحترمَ حقُّهُ في أن يكونَ على طبيعتِهِ، وألا يسعى أيٌّ منهما لتغييرِهِ ليُلائمَ رضاهُ ضد الآخر. وأن يتحدثا معًا بشأنِ تربيتِه، فلابد أن تكونَ قراراتهما موحدةً قدرَ الإمكانِ لتجنب التناقض الذي يُصيبه بالحيرة. طلبَ الصدقَ، لكن دون أن يُحمّلَ ما لا يُدركُهُ، وطلبَ ألا يُظهرا لهُ أن زواجهما كانَ خطأً فادحًا، لأنه هو ثمرةُ هذا الزواج، ووجودهُ ليسَ بخطأٍ أبدًا.

كما تمنّى ألا يتذمّرا من مسؤولياتهما أمامه، فوجودهُ ليسَ عبئًا بل هو أمانةٌ غالية. وطلبَ أن يُعدّاهُ نفسيًا بهدوءٍ، دون صدمةٍ، إذا ما اختارَ أحدهما الزواجَ مجددًا. ألتمسَ أن يُعلّماه أن العائلةَ لا تُقاسُ بشكلها التقليدي، بل بجوهرِ الحبِّ والاحترامِ الذي يسودُها. وألا يُخفيا عنه مشاعرهما، لكن دون أن يُحمّلاهُ عبءَ حزنهما. وأن يُسمحَ له بالتعبيرِ عن غضبِهِ أو حزنِهِ دونَ توبيخٍ، فمشاعرهُ مشروعةٌ وأصيلة.

كم هو موجعٌ أن يُطلبَ من طفلٍ أن يُساعدَ والديهِ على بناءِ الثقةِ في نفسهِ رغمَ تغيرِ شكلِ البيتِ! وكم هو مؤلمٌ أن يحتاجَ إلى روتينٍ مستقرٍّ لأنهُ يتعبُ من كثرةِ التغييراتِ والاضطراباتِ! هذهِ الكلماتُ، أيها الدفتر، تُنهي الرسالةَ بتذكيرٍ مؤثرٍ يمزقُ الفؤاد: "تذكّرا أنني طفلٌ قبلَ أن أكونَ ابنًا للطلاقِ. أحبكما... لا تجعلاني أخسرُ أحدكما في سبيلِ الآخر."

هذهِ الرسالةُ، أيها الدفتر، لم تكنْ مجردَ طلباتٍ فرديةٍ، بل كانتْ صكَّ اتهامٍ خفيٍّ يُوجهُهُ أطفالٌ أبرياءُ إلى عالمِ الكبارِ الذي لا يرحمُ أحيانًا. إنها تُرينا كيفَ أن أبسطَ حقوقِ الأطفالِ تُهدرُ في خضمِّ صراعاتِ الكبارِ وأنانيّتهم، وكيفَ تُنسى الأمانةُ التي أودعها اللهُ في أيدي الوالدينِ. إنها تضعنا أمامَ مسؤوليتنا الأخلاقيةِ والإنسانيةِ كمحامينَ وكأفراد. هذا الصوتُ النقيُّ، صوتُ البراءةِ، يجبُ أن يُسمعَ ويُستجابَ لهُ، فصحةُ أجيالٍ قادمةٍ تُبنى على احترامِ هذهِ الحقوقِ البسيطةِ، وعلى وعيِ الكبارِ بحجمِ تأثيرِ قراراتِهم على من لا حولَ لهم ولا قوةَ.

وسام شرف

أيها الدفتر الصامت!

أخيرًا، موكلي على وشكِ نيلِ حريتهِ قبل نهايةِ هذا الشهر. إنها حريةٌ ليست مجردَ إفراجٍ، بل هي وسامُ شرفٍ يُتوّجُ صدورَ الأحرارِ الذين لم يتراجعوا عن المطالبةِ بالحقِّ، وهي هزيمةٌ أخلاقيةٌ لكلِّ من صمتَ وتواطأَ على الظلمِ في هذا الزمنِ الصعبِ.

كم من مرةٍ، أيها الدفتر، خططتُ في صفحاتك عن الظلم الذي يسكن الأروقة، عن الخيبة التي تتربص بنا بعد كل قضيةٍ خاسرة، وعن مرارة الحق الذي لا يجد له نصيراً. لكن اليوم، اليوم مختلف. اليوم أكتب بقلبٍ يرقص فرحًا، وبشعورٍ عميقٍ بالفخر. لقد جاءنا الخبر الذي طال انتظاره: براءة موكلي، الرجل الذي قضى سنين طويلة خلف القضبان ظلمًا، وإفراج وشيكٌ عنه.

إنها لحظةٌ تتجاوزُ حدود النصر القانوني المعتاد. هذه ليست مجرد ورقةٍ تُصدرها المحكمة، أو قرارٍ يُغيرُ مصيرَ رجلٍ واحدٍ. إنها تجسيدٌ حيٌّ لما أؤمن به منذ زمنٍ طويل: أن للحقِّ قوةً لا

تُقهر، وأن الإرادة الصلبة لا تُرغم على الرضوخ، مهما طال الأمد. لقد كنتُ أؤمن ببراءته منذ اللحظة الأولى التي اطلعت فيها على ملفه، وكم قضينا من ليالٍ طوالٍ نُجاهد لفكّ خيوط المؤامرة التي أودت به إلى السجن.

العبارة التي سمعتُها اليوم، والتي أصبحتُ أرددها في وجداني، تلخصُ كل شيء: "إنها حريةٌ ليست مجردَ إفراجٍ، بل هي وسامُ شرفٍ يُتوّجُ صدورَ الأحرارِ الذين لم يتراجعوا عن المطالبةِ بالحقِّ، وهي هزيمةٌ أخلاقيةٌ لكلِّ من صمتَ وتواطأَ على الظلمِ في هذا الزمنِ الصعبِ." هذا الوسام ليس لموكلي وحده، بل هو لكل من آمن بقضيته، لكل من رفض التنازل، لكل من لم يتعب من طرق أبواب العدالة، حتى عندما بدا أن الأمل يتلاشى. إنها رسالةٌ قويةٌ إلى كل من ظنّ أن الظلم يمكن أن ينتصر دائمًا، وأن الصمت هو الطريق الآمن.

هذه البراءة، وهذا الإفراج، هو صفعةٌ قويةٌ على وجوه كل من تواطأ، وكل من صمت عن الحق وهو يراه. إنه يثبت أن العدالة، وإن كانت بطيئةً، فإنها لا تموت. وأن الأمانة والمثابرة، حتى في "زمن الردة" حيث تتراجع القيم وتتكاثر ألوان الظلم، قادرةٌ على

إحداث الفارق. لقد كان موكلي رمزاً للمقاومة الصامتة، لصبر الرجل الذي يثق بأن براءته ستظهر يومًا ما، مهما تآمرت الظروف.

إنها لحظةٌ تُعيدُ لي بعضًا من اليقين الذي اهتز كثيراً في الفترة الماضية. تُذكرني بأن رسالتي كمحامٍ تتجاوز كسب القضايا إلى تحقيق العدل، وإعادة الحقوق إلى أصحابها. وأن كل انتصارٍ للعدالة، مهما بدا صغيراً، هو ضوءٌ يضيء عتمة الظلم، ويُرسل إشارة أملٍ لمن لا يزالون يكافحون في ظلال السجون أو قيود الظلم الاجتماعي. نعم، أيها الدفتر، اليوم هو يوم فخر، يوم وسام شرفٍ نُعلقه على صدر العدالة والإنسانية.

شراك الوهم

أيها الدفتر الصامت!

يميلُ عقلُ الإنسانِ إلى تصديقِ الغرائبِ والأوهامِ، ففيهِ برمجةٌ كامنةٌ للكسلِ والخوفِ، وللحذرِ الذي يظنُّهُ سبيلاً للبقاءِ. هي خاصيةٌ استغلها الكثيرونَ، ليُسيروا الجموعَ كقطيعٍ مُذعنٍ.

اليوم، أيها الدفتر، بينما كنتُ أتأملُ في وجوهِ البسطاءِ الذين يرتادون مكتبي من أبناء هذا الجنوب الشرقي، تملكتني فكرةٌ عميقةٌ، لطالما راودتني في خضمّ القضايا التي أتعاملُ معها. هؤلاء الناس، بطيبتهم الفطرية وبساطتهم الروحية، يحملون في قلوبهم نقاءً نادرًا، لكن هذا النقاء نفسه قد يكون نقطة ضعفٍ تستغلها النفوس المريضة.

لقد وجدتُ في حكمتي اليوم تفسيراً لِما أراهُ مراراً وتكراراً: "يميلُ عقلُ الإنسانِ إلى تصديقِ الغرائبِ والأوهامِ، ففيهِ برمجةٌ كامنةٌ للكسلِ والخوفِ، وللحذرِ الذي يظنُّهُ سبيلاً للبقاءِ. هي خاصيةٌ استغلها الكثيرونَ، ليُسيروا الجموعَ كقطيعٍ مُذعنٍ." كم هي صحيحةٌ هذه الكلمات! فالناسُ هنا، بسذاجتهم الجميلة،

غالبًا ما يجدون في الخرافة ملاذًا، وفي الأشياء الغريبة تفسيراً لِما يعجزُ العقلُ عن فهمه، أو لِما يجدونه صعبًا في مواجهته.

أرى هذا الميلَ في القصص التي تُحكى لي، في الإيمانِ بالتعويذاتِ الخارقة، وفي تصديقِ من يدّعي معرفة الغيب أو امتلاك قوى غير مرئية. ليس الأمرُ نقصًا في الذكاء، بل هو نوعٌ من الكسل الذهني عن البحث والتحليل، والخوف من المجهول الذي يدفعهم إلى التشبث بأي قشة تُقدم لهم على أنها خلاص. كما أن الحذر الزائد، الذي يُفترض أن يكون وقايةً، قد يتحول إلى بساطةٍ مفرطةٍ في تصديق من يبدو أنه يقدم حلاً سريعًا أو حمايةً وهميةً.

وهنا تكمن المأساة الحقيقية، أيها الدفتر. فـ"خاصيةٌ استغلها الكثيرونَ، ليُسيروا الجموعَ كقطيعٍ مُذعنٍ." كم رأيتُ من دجالين ومُحتالين يستغلون هذه البساطة، يتاجرون بالخوف والجهل، ويسيطرون على عقول البسطاء ويدفعونهم إلى الخسران، سواء كان ماليًا أو نفسيًا. يُقدمون لهم الأوهامَ في طبقٍ من ذهبٍ، ويُقنعونهم بأن طريق النجاة يمر عبر طاعتهم العمياء أو التخلي عن منطقهم.

إنها ظاهرةٌ مؤلمةٌ، أن ترى عقولاً طيبةً تُساقُ كالقطيع خلف وعودٍ فارغةٍ أو شعاراتٍ براقةٍ. هذا لا يقتصر على الأمور الروحانية فقط، بل يمتد إلى القرارات اليومية، وإلى العلاقات الاجتماعية، وحتى إلى بعض جوانب السياسة المحلية. إنها تجعلُ القلبَ يدمى، أن ترى أناسًا يستحقون الأفضل، يقعون ضحيةً لِمن يستغلُ طيبتَهم وجهلَهم.

دورنا كمحامين يتجاوز القانون هنا، أيها الدفتر. فهو يدعونا إلى أن نكون حماةً للعقلِ والمنطقِ، وأن نُسهمَ في تنويرِ الوعيِ، وتحدي الخرافةِ، حتى لا يظلَّ هؤلاء الطيبونَ عرضةً لشراكِ الوهمِ التي تُنصبُ لهم في كلّ زاوية. إنها معركةٌ لا تقتصرُ على قاعات المحاكم، بل تمتدُ إلى عمقِ الوعيِ البشريِّ، وتهدفُ إلى تحريرِ العقولِ من قيودِ الكسلِ والخوفِ التي يستغلها الخبيثون.

ثمن الصدق

أيها الدفتر الصامت!

الحياةُ صراعٌ أبديٌّ: إمّا أن تربحَ قلوبَ الناسِ فتخسرَ ذاتكَ، أو أن تُحافظَ على روحكَ فتُقصى عنْ قلوبِهم. فمن النادرِ جدًا أنْ تجمعَ بينَ كسبِ الودِّ وكسبِ النفسِ في آنٍ واحدٍ.

كم مرةٍ، أيها الدفتر، مرّت عليّ هذه الحقيقة القاسية في دهاليز العمل والحياة. في مهنتنا، التي تكشف الكثير من خبايا النفوس، ترى هذا الصراع جلياً في كل يوم. ترى من يختار طريق النفاق والمداراة الكاذبة ليُرضي الجميع، ليكسب المصالح، ليُحافظ على شبكة علاقاتٍ واسعةٍ، لكنه في المقابل يخسر جزءاً من روحه، يُطفئ نور ضميره، ويُصبح نسخةً باهتةً لا تُشبه ذاته الحقيقية.

وكم من مرةٍ أخرى، رأيتُ من يختار طريق الحق والصراحة والبعد عن النفاق. هؤلاء هم من يصدحون بالحقيقة وإن كانت مُرة، يُصرون على مبادئهم وإن كانت تُغضب الأقوياء، ويُفضلون الشفافية على المساومة. هؤلاء، أيها الدفتر، غالبًا ما يدفعون ثمنًا

باهظًا. يخسرون الأصدقاء، تُقفل في وجوههم الأبواب، يُنظر إليهم على أنهم غريبو الأطوار أو مثاليون لا يتناسبون مع "واقع" الحياة. تُصبح عُزلتهم ثمنًا لصدقهم، وخسارة الناس ضريبةً لِكسبِ أنفسهم.

إنها معادلةٌ قاسيةٌ، قلما تجد لها حلاً وسطًا. فالنفس البشرية، ميّالةٌ إلى القبول والاحتضان، لا تُحبّ من يكسر قوالبها، ولا تتقبل من يُعرّي زيفها. وهذا ما يجعل مقولة "فمن النادرِ جدًا أنْ تجمعَ بينَ كسبِ الودِّ وكسبِ النفسِ في آنٍ واحدٍ" تتردد صداها بقوة في أذني. أراها في مئات المواقف: في ذلك الموظف الذي يلتزم بالنزاهة فيُقصى، وفي ذلك الصحفي الذي يقول الحقيقة فيُحارب، وفي ذلك القريب الذي يرفض المجاملة الزائفة فيُتّهم بالجفاء.

لطالما حاولتُ في مهنتي أن أكون ذلك الرجل الذي لا يبيع ضميره، الذي يدافع عن الحق حتى لو كان مكلفًا. ولقد دفعتُ ثمنًا لذلك، أيها الدفتر، دفعته في علاقاتٍ خفت بريقها، وفي فرصٍ فاتتني، وفي أحيانٍ شعرتُ فيها بثقل العزلة. لكنني، وفي المقابل، كسبتُ شيئًا لا يُقدر بثمن: كسبتُ ذاتي. كسبتُ راحةَ

الضمير، والقدرة على النظر في المرآة دون أن أرى وجهًا غريبًا لا يُشبهني.

إنها معركةٌ داخليةٌ قبل أن تكون خارجية. معركة بين صوت الأنا الذي يدفع للمكاسب السريعة، وصوت الضمير الذي يُطالب بالثبات على المبدأ. ولعلّ هذه المعركة هي جوهر وجودنا الإنساني. أن تُدرك أن الحفاظ على شرف الروح أغلى من أي مكسبٍ زائل، وأن عُزلة الصادق خيرٌ من ضجيج المُنافقين. ففي نهاية المطاف، يبقى ما يُبنى على الحق، ويزول ما يُبنى على الزيف. ويبقى الصادقُ رابحًا، حتى وإن خسرَ بعضَ الناس، لأنهُ كسبَ نفسه، وهذا هو الربحُ الحقيقيُّ الخالد.

أسفار الواجب

أيها الدفتر الصامت!

ما أكثرَ الليالي التي أقضيها متنقلاً بين المدن، أُطاردُ قضيةً هنا، وأُتابعُ ملفًا هناك. إنها طبيعة مهنتنا كمحامين في هذا الجنوب الشرقي الشاسع؛ لا يكاد المرء يستقر حتى تُنادِيه محكمةٌ في مدينةٍ أخرى، أو قضيةٌ تتطلب حضورَه في مكانٍ بعيد. كثيراً ما ينتابني الإرهاق من هذا التنقل الدائم، لكنني كلما شعرتُ بذلك، تذكرتُ حكمةً قديمةً تحملُ في طياتها الكثير من العزاء والمنفعة.

كما قال الإمام الشافعي، إنّ في الاغترابِ عن الأوطانِ والسفرِ سعيًا للمجدِ، فوائدَ جمةً. فهو يُفرجُ الهمومَ، ويُكسبُ المعيشةَ، ويُثري العلمَ، ويُهذبُ الآدابَ، ويُتيحُ صحبةَ الكرامِ.

وكم أجدُ لهذه الكلماتِ صدىً عميقاً في حياتي اليومية. ففي خضمّ العمل القانوني الشاق، وما يصحبه من ضغطٍ نفسيٍّ وهمومٍ تثقلُ الروح، يأتي السفر أحيانًا كـ "تَفَرُّجُ هَمٍّ". فمجرد الابتعاد عن روتين المكتب، ورؤية وجوه جديدة، أو حتى مجرد

التحديق في المناظر الطبيعية المتغيرة من نافذة السيارة، يُخففُ شيئاً من وطأة القضايا المعقدة، ويمُنحُ الذهنَ فرصةً للتنفسِ وإعادةِ التفكيرِ من منظورٍ مختلفٍ. إنه نوعٌ من العلاجِ الصامتِ للروحِ المُتعبةِ.

وبلا شك، فإن السفر هو جزءٌ أساسيٌ من "اكْتِسابُ مَعِيشةٍ" في مهنتنا. فالدفاع عن الحق لا يعرف حدودًا جغرافية، والعدالة لا تقتصر على مدينةٍ واحدة. لِكي تستمر العجلة وتُؤدى الأمانة، لابد من قطع المسافات، وحضور الجلسات في محاكم مختلفة، ومتابعة القضايا في أقصى نقاط هذه الجهة. إنه الواجب المهني الذي يتطلب الحركة الدائمة، وجهدًا إضافيًا لضمان حقوق الموكلين.

ثم يأتي "وعِلمٌ" و"آدابٌ". فكل مدينةٍ أزورها، وكل محكمةٍ أدخلها، وكل قضيةٍ أتعامل معها، تُضيفُ إلى رصيدي من العلم القانوني والخبرة العملية. أتعلمُ من أساليب المحامين الآخرين، من قرارات القضاة، من ردود فعل الشهود، ومن تفاصيل كل مجتمعٍ محلي. وهذه التجارب تُثري معرفتي بالقانون في تطبيقاته المتنوعة، وتُنمّي فهمي لسلوك البشر، كما أنها تُهذّبُ من آدابي،

وتُعلمني كيفية التعامل مع مختلف الطباع والشخصيات، وصقل مهارات التواصل التي لا غنى عنها في عملي.

وأخيراً، وهي الأهم ربما في بعض الأحيان، هي "صُحْبَةُ ماجِدٍ". ففي هذه الأسفار، ألتقي بالعديد من الزملاء النبلاء، من القضاة ذوي الضمائر اليقظة، ومن الموكلين الذين يُظهرون صبراً وجلداً، ومن الناس العاديين الذين ألتقيهم صدفة ويتركون في نفسي أثراً طيباً. هؤلاء هم من يُجددون فيّ الإيمان بالخير في هذه الدنيا، ويُذكرونني بأن الشرف والأمانة لا يزالان موجودين، وأن الصالحين كثيرون، وأنهم خيرُ رفيقٍ في دروب الحياةِ الشاقةِ.

نعم، أيها الدفتر، قد تكون هذه التنقلات مُرهقةً للجسد، لكنها تُغذي الروحَ والعقلَ. إنها ضرورةٌ مهنيةٌ، لكنها أيضًا رحلةٌ مستمرةٌ نحو النمو والتعلم والاكتشاف. هي أسفارُ الواجبِ، لكنها في جوهرها، أسفارُ الذاتِ نحو تحقيقِ المجدِ، لا الشخصيِّ فقط، بل مجدِ العدالةِ التي نسعى إليها.

بوابات الروح

أيها الدفتر الصامت!

أحيانًا، تُسربلُكَ أثقالُ الوجودِ كجمرٍ يلفُّ الجسدَ، وكمحبٍّ مُلتهبٍ يخشى منكَ الرحيلَ في كلِّ نبضةٍ. حينها، تهفو الروحُ لِقبلةِ ندىً باردٍ يُطفئُ لظاها، أو لِهمسِ ريحٍ عليلةٍ تُذيبُ القيظَ عن جبينِ الفكرِ المُتعبِ. لكنَّ القدرَ يُشيرُ إلى طقسٍ آخرَ: لا مفرَّ من احتساءَ نخبِ قهوتكَ الداكنةِ، والغطسَ في لججِ الكلماتِ التي تحملُ أرواحاً غيرَ روحكَ. هي خيوطٌ من ضياءٍ تُنسجُ مع ترابِ واقعكَ، فتُهديَهُ رحيقَ الحياةِ، وتمُدُّ عُمرَكَ في فضاءٍ يلامسُ نبضَ زمنِكَ المعاشِ. لربما، في ذلكَ الفضاءِ، أنتَ الفارسُ الذي تجلى في حبرِ ما قرأتَ. قل لي إذن، يا أنا: ما هو اسمُكَ الخفيُّ في تلكَ الرواياتِ؟ وماذا تُخبئُ لكَ عوالمُها؟ ببساطةٍ، أيُّ بحرٍ من الكلماتِ تشرعُ فيهِ أشرعتكَ؟

نعم، أيها الدفتر، في أحيانٍ كثيرةٍ، تلتفُّ حولَ روحي حرارةُ القضايا المُشتعلةِ، تُصهرُ عزمي، وتُثقلُ كاهلي بضغوطٍ لا تُعدُّ. هي همومُ الموكلينَ التي لا تعرفُ شروقًا أو غروبًا، كأنها ظمأٌ

أبديٌّ لا يرتوي. في تلكَ اللحظاتِ، يصرخُ الكيانُ في داخلي لِقُبلةٍ من ماءٍ تَلِجُ أعماقَ الروحِ، أو لِأنفاسٍ باردةٍ تداعبُ شغفَ التفكيرِ المُنهكِ، لتُعيدَ لهُ الحياةَ من غفوتِهِ القسريةِ. أبحثُ عن ملاذٍ، عن ركنٍ هادئٍ أُعيدُ فيهِ تجميعَ شتاتِ كيانيَ المُتبعثرِ.

لكنَّ العجبَ، أيها الدفتر، أنَّ الملاذَ لا يأتي دائمًا ببرودةِ الماءِ، بل يأتينيَ بلمسةِ كوبٍ من القهوةِ يُلامسُ الشفاهَ بدفئِهِ المألوفِ، فيُشعلُ في الروحِ شرارةَ اليقظةِ. ثمَّ أُتبعها بفتحِ صفحاتٍ لم تُمسَّ بعدُ، فأغوصُ في عوالمَ من كلماتٍ لم تُسمعْ من قبلُ. هي ليستْ مجردَ أحرفٍ، بل هي بواباتٌ لِحيواتٍ أخرى، تنسجُ ضفائرها الذهبيةَ مع خيوطٍ باهتةٍ من واقعيَ الماديِّ. تُلقي عليهِ نسماتٍ من حلاوةِ العيشِ المفقودةِ، وتمُدُّ فيَّ عمراً إضافياً، كأنني أخطو في بُعدٍ موازٍ لِزمني الذي أُقضيهِ.

هناكَ، في هذا الفضاءِ السحريِّ الذي تصنعهُ الكلماتُ، أتجاوزُ ذاتيَ المتعبةَ. أُغلقُ عينيّ أحيانًا، فأرى نفسيَ أتقمصُ أدواراً لم تُكتبْ لي في سيناريو حياتي. أُصبحُ فارساً يعتلي صهوةَ الوفاءِ، أو حكيماً تُنصتُ لهُ الشعوبُ، أو ثائراً يُلهبُ الثوراتِ، أو عاشقاً تهمسُ لهُ القلوبُ بأسرارها. لربما، في هذا البُعدِ الخفيِّ،

أنا لستُ المحاميَ الذي تُنهكهُ قضايا الناسِ، بل أنا الشخصيةُ التي تُحركُ الأحداثَ، وتصنعُ الأقدارَ في عالمٍ من صُلبِ الخيالِ.

فقل لي إذن، أيها الدفتر الصامت، ما اسمي الذي يترددُ في أروقةِ تلكَ العوالمِ الساحرةِ؟ وما هو الكونُ الذي يُعانقُ روحي كلما تفتحتْ صفحةٌ جديدةٌ؟ لا أدري، فالتفاصيلُ تتبدلُ كالفصولِ مع كلِّ سطرٍ، ومع كلِّ حكايةٍ تولدُ من رحمِ الحبرِ. لكنَّ الأمرَ الجوهريَ يظلُّ بسيطاً: أخبرني، أيُّ نبعٍ من الكلماتِ تروي ظمأَ روحكَ؟ ففي الإجابةِ على هذا السؤالِ، تكمنُ مفاتيحُ تلكَ العوالمِ الخفيةِ التي ألوذُ بها، ومصدرُ قوتي الذي يُعينني على مواجهةِ لظى الواقعِ. إنَّ القراءةَ ليستْ مجردَ هوايةٍ، أيها الدفتر، إنها حياةٌ إضافيةٌ، تمُنحُنا القدرةَ على التجاوزِ، والنموِّ، والفهمِ العميقِ لِأسرارِ الوجودِ.

حرية الفكر

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، انطوت صفحةٌ أخرى في سجلات المحكمة، ولكنها لم تكن صفحة عادية. لقد كان ختامًا لمسارٍ طويلٍ من الصراع، وتتويجًا لصبرٍ وجلدٍ لموكلي الذي حاز على براءته أخيرًا. رأيتُ في عينيه بريقَ الفرحِ المختلطِ بالإرهاق، وشعرتُ بثقلِ الأعباءِ التي انزاحت عن كاهلِه بعد سنواتٍ من القلق والترقب. كانت لحظةَ انتصارٍ تُجددُ فيّ الإيمانَ بأن العدالة، وإن تعثرتْ، فإنها قادرةٌ على الوصولِ.

بعد أن تبادلنا التهاني، وقبل أن يغادر، شعرتُ بدفعٍ داخليٍّ لأقدمَ لهُ نصيحةً تتجاوزُ حدودَ القانونِ، وتمسُّ جوهرَ حريتِه الحقيقيةِ. أردتُ أن أُذكّرهُ بأن الخروجَ من السجنِ ليسَ نهايةَ المطافِ، وأن هناكَ سجونًا أخرى خفيةً قد تُقيّدُ الفكرَ والروحَ.

قلتُ له: "يا صديقي، لقد كسبتَ معركةً عظيمةً، وحررتَ جسدكَ من القيودِ. لكنَّ الحريةَ الحقيقيةَ أعمقُ وأشملُ. فلا تسمحْ لأحدٍ أن يخدعكَ ببريقِ المسمياتِ أو الشعاراتِ الخادعةِ،

ولا حتى بجمالِ النصوصِ الروحانيةِ، ليُسيطرَ على عقلكَ ويُرهبهُ ويُشلَّ فكركَ. بل استخدمْ عقلَكَ، وابحثْ بنفسكَ عن المعنى الحقيقيِّ لِكلِّ شيءٍ، والمغزى العميقَ الكامنَ وراءَه."

لقد رأيتُ الكثيرَ، أيها الدفتر، من الذينَ يُساقونَ كالقطيعِ خلفَ مسمياتٍ براقةٍ لا تحملُ في جوهرها إلا الخداع. شعاراتٌ جوفاءُ تُرفعُ باسمِ الحقِ والخيرِ، بينما تُخفي وراءها أجنداتٍ شخصيةً ضيقةً، أو أهدافًا لا تخدمُ إلا مصالحَ فئةٍ معينةٍ. إنها لعبةٌ قديمةٌ، يُجيدها من يُريدُ السيطرةَ على الجموعِ، فيُغلّفُ باطلهُ بغلافٍ جذابٍ يُبهرُ العيونَ ويُسحرُ العقولَ.

والأخطرُ من ذلك، هو التلاعبُ بالنصوصِ، حتى تلكَ التي تُعَدُّ مقدسةً وجميلةً. فكلماتُ الحكمةِ والأديانِ، التي أُنزلَتْ لتُحررَ الإنسانَ وتُعليَ شأنَهُ، قد تُنتزعُ من سياقها، وتُلوى أعناقُ معانيها لتُبررَ الظلمَ، أو تُخمدَ صوتَ العقلِ النقديِّ، أو تُرهبَ الروحَ باسمِ الطاعةِ العمياءِ. فيتحولُ النصُّ من منارةٍ هاديةٍ إلى أداةِ سيطرةٍ تُشلُّ الفكرَ وتُخمدُ صوتَ الضميرِ.

هذا ما أردتُ لموكلي أن يفهمه. أن انتصارهِ اليوم ليسَ إلا نقطةَ بدايةٍ لوعيٍ جديدٍ، لِحياةٍ يجبُ أن يقودَها بعقلٍ حرٍّ وقلبٍ

مُتبصّرٍ. أن لا يعتمدَ على ما يُلقى إليهِ جاهزاً، بل أن يُخضعَ كلَّ فكرةٍ للمحاكمةِ العقليةِ، ويبحثَ بنفسهِ عن جوهرِ الأشياءِ وحقيقتِها. هذا البحثُ الذاتيُّ هو الدرعُ الواقيُّ من أيِّ محاولةِ استلابٍ للوعيِ، وهو السبيلُ لِعمرٍ مديدٍ في مسارِ الحقيقةِ.

ففي عالمٍ تتنافسُ فيه الأصواتُ على السيطرةِ، وتتزيّنُ الأكاذيبُ بأبهى الحللِ، تُصبحُ حريةُ الفكرِ هي أثمنَ ما يملكهُ الإنسانُ. هي القلعةُ الحصينةُ التي تحميهِ من الوقوعِ في شراكِ التضليلِ، وهي النورُ الذي يُضيءُ لهُ الطريقَ نحو المعرفةِ واليقينِ. نعم، أيها الدفتر، نصيحةٌ بسيطةٌ في ظاهرها، لكنها فلسفةُ حياةٍ، أرجو أن يتقبلها قلبهُ وعقلهُ بعدَ كلِّ هذا المسارِ الشاقِّ.

ثبات المبدأ

أيها الدفتر الصامت!

عندَ مُفترقِ الطرقِ بينَ المواجهةِ أو الانسحابِ، نختارُ المواجهةَ؛ لأنها هي المبدأُ الأصيلُ، بينما يبقى الانسحابُ استثناءً لا يُمكنُ أنْ يُقاسَ عليهِ أو يُبنى عليهِ قرارٌ ثابتٌ.

لطالما وجدتُ نفسي، أيها الدفتر، في هذا المفترقِ الوعرِ. فمسيرةُ المحاماةِ ليستْ درباً مفروشاً بالوردِ، بل هي طريقٌ مليءٌ بالعقباتِ، والضغوطاتِ، والإغراءاتِ التي تُحاولُ أنْ تُزيحَكَ عن جادةِ الحقِّ. في كلِّ قضيةٍ، وكلِّ معركةٍ قانونيةٍ، تُعرضُ عليكَ خياراتٌ: إما أن تُداهنَ، أن تُغمضَ عينيكَ عن بعضِ الحقائقِ، أن تُساومَ على المبادئِ لِتحققَ مكسباً سريعاً أو تتجنبَ عداءً محتملاً، أو أن تُواجهَ بصدرٍ مفتوحٍ، مُتمسكاً بما تمُليهِ عليكَ قناعاتكَ وقيمكَ.

لقد علّمتني السنونُ، ولقّنتني التجربةُ، أنَّ "المواجهةَ هي المبدأُ الأصيلُ". إنها ليستْ مجردَ خيارٍ تكتيكيٍّ، بل هي أساسُ الوجودِ المهنيِّ والأخلاقيِّ. المواجهةُ تعني ألا تخشىَ الصدعَ

بالحقِّ، ألا تتراجعَ أمامَ سطوةِ الظلمِ أو نفوذِ الأقوياءِ، أن تُجابهَ الفسادَ وإنْ كلّفكَ ذلكَ الكثيرَ. هي تعني أنَّ قضيةَ موكلي ليستْ مجردَ أوراقٍ، بل هي أمانةٌ في عنقي، تستحقُّ مني كلَّ شجاعةٍ وثباتٍ. وهذا هو المبدأُ الذي لا أُساومُ عليهِ أبداً.

أما "الانسحابُ، فهو استثناءٌ لا يمُكنُ أنْ يُقاسَ عليهِ أو يُبنى عليهِ قرارٌ ثابتٌ". قد تُفرضُ عليكَ لحظاتٌ تكتيكيةٌ تقتضي التراجعَ المؤقتَ، أو إعادةَ ترتيبِ الصفوفِ. قد تجدُ نفسك في مأزقٍ لا تستطيعُ الخروجَ منهُ إلا بتغييرِ استراتيجيتكَ، وهذا أمرٌ مقبولٌ في فنِّ المواجهةِ. لكنَّ الانسحابَ كمنهجٍ، كخيارٍ دائمٍ للتهربِ من المسؤوليةِ أو تفادي الصعابِ، هذا ما لا أقبلهُ لِذاتيَ المهنيةِ أو الشخصيةِ. أن تُغلقَ البضاعةَ، أن تُسلمَ الأمرَ الواقعَ، أن تُديرَ ظهركَ للحقِّ خوفاً من التبعاتِ، هذا ليسَ من شيمي.

لقد واجهتُ في مسيرتي الكثيرَ من الضغوطاتِ التي كادتْ تُثنيني. عروضٌ مغريةٌ لِغضِّ الطرفِ، تهديداتٌ مُبطنةٌ لِثنيي عن متابعةِ قضايا حساسةٍ، وإغراءاتٌ تلوحُ بمسارٍ أسهلَ وأقلَّ تعقيداً. لكنَّني كلما تذكرتُ هذا المبدأَ، "المواجهةَ هي المبدأُ"، وجدتُ

في داخلي قوةً خفيةً تُعيدُني إلى صوابيَ، وتُجددُ عزميَ على الاستمرارِ في طريقي.

إنها قناعةٌ عميقةٌ تُعطيني الفخرَ والسكينةَ. ففي عالمٍ يتقلبُ فيه الكثيرونَ بينَ المواقفِ، ويلهثونَ خلفَ المصالحِ الزائلةِ، يُصبحُ التمسكُ بالمبدأِ الأصيلِ شرفاً يُضاءُ بهِ الدربُ. هو الثمنُ الذي أدفعهُ لِأن أُنامَ بضميرٍ مرتاحٍ، ولِأن أُصافحَ نفسيَ في المرآةِ كلَّ صباحٍ دونَ خجلٍ. فليستْ كلُّ الانتصاراتِ في قاعاتِ المحاكمِ، فبعضُها يُسجلُ في سجلاتِ الروحِ، عندما تختارُ المواجهةَ بقلبٍ ثابتٍ وروحٍ لا تلينُ، حتى وإنْ كانتْ الطريقُ وعرةً والنتائجُ غيرَ مضمونةٍ. هذا هو فخري، أيها الدفتر، وهذا هو ثباتُ مبدأي.

نصر العطاء

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، خرجتُ من قاعة المحكمةِ وقلبي يمتلئُ بفخرٍ عظيمٍ، ليس لِكسبِ قضيةٍ فحسب، بل لأنَّ الحقَّ انتصرَ لِمنْ كانتْ في أمسِّ الحاجةِ إليهِ. تلكَ المرأةُ المسنةُ، التي تهدمَ بيتها على يدِ رجلِ سلطةٍ تجبرَ واستغلَّ نفوذَهُ، رأتْ اليومَ نورَ العدالةِ. قضتِ المحكمةُ لها بتعويضٍ عادلٍ يُعيدُ لها كرامتها ومأواها، وفوقَ ذلكَ، جاءَ تأديبُ رجلِ السلطةِ نفسه في ملفٍ إداريٍ آخرَ، جزاءً لشططِهِ وتجاوزِهِ. إنها لحظةٌ تُثلجُ الصدرَ، وتُعيدُ الثقةَ في أنَّ الميزانَ، وإنْ مالَ أحياناً، فإنهُ لا بدَّ أن يستقيمَ.

في مثلِ هذهِ اللحظاتِ، أيها الدفتر، تتجلى حكمةٌ أؤمنُ بها: "كم هو جميلٌ أن تُبذلَ الجهدَ لمن هم في أمسِّ الحاجةِ إليهِ. فإن قفزتَ بركةَ ماءٍ لأجلِ الآخرينَ، فسيُفتحُ لكَ حتماً عبورُ المحيطاتِ. عندَ العطاءِ، لا تبحثْ عن التقديرِ، ولا تنشدْ ذاتكَ في عيونِ الآخرينَ. لا تُشغلْ نفسكَ عندَ التضحيةِ بالتفكيرِ هل يستحقونَ، ولا تنتظرْ أن تكونَ التضحياتُ متكافئةً."

نعم، أيها الدفتر، إنَّ مهنتنا تضعنا في قلبِ هذا العطاءِ. فكثيرٌ من موكلينا، خاصةً الفئاتُ الضعيفةُ، لا يملكونَ سوى ثقتهم فينا، وحاجتهم الماسةِ لِمنْ يدافعُ عنهم في وجهِ الظلمِ والقوةِ. مثلُ هذهِ المرأةِ المسنةِ، التي لا تملكُ حولاً ولا قوةً أمامَ جبروتِ السلطةِ، تصبحُ قضيتها أمانةً في عنقِ المحامي، تتطلبُ منهُ بذلَ أقصى الجهدِ دونَ حسابٍ أو توقعٍ لِجزاءٍ.

لقد علمتني الحياةُ أنَّ "قفزَ بركةِ ماءٍ لأجلِ الآخرينَ" هو جوهرُ العملِ النبيلِ. قد تكونُ تلكَ البركةُ قضيةً صغيرةً في نظرِ البعضِ، أو جهداً يُرى يسيراً، لكنها بالنسبةِ لِمنْ يُعاني، هي بحرٌ من الألمِ. وإنَّ إقدامكَ على هذا الجهدِ، دونَ انتظارِ مكافأةٍ فوريةٍ أو تقديرٍ علنيٍّ، هو الذي يفتحُ لكَ، بطريقةٍ أو بأخرى، "عبورَ المحيطاتِ"؛ ليسَ بالضرورةِ مكافأةً ماديةً، بل ربما سلاماً داخلياً، أو رضاً عن الذاتِ، أو انتصاراً لِقناعاتكَ لا يُمكنُ شراؤهُ بالمالِ.

إنَّ النصيحةَ بألا "تبحثْ عن التقديرِ، ولا تنشدْ ذاتكَ في عيونِ الآخرينَ" هي درسٌ بليغٌ. فالعطاءُ الصادقُ لا ينتظرُ الثناءَ أو الشكرَ. إنَّ مكافأتهُ الحقيقيةَ تكمنُ في رؤيةِ الحقِّ وقد انتصرَ، وفي استعادةِ الكرامةِ لِمنْ سُلبتْ منهُ. وعندما أرى الفرحةَ في

عيني هذهِ السيدةِ المسنةِ، وحقيقةَ أنَّ الظالمَ قد نالَ جزاءَهُ، فهذا التقديرُ يفوقُ أيَّ كلمةِ شكرٍ أو وسامٍ.

وكم هي حكمةٌ عميقةٌ ألا "تُشغلْ نفسكَ عندَ التضحيةِ بالتفكيرِ هل يستحقونَ، ولا تنتظرْ أن تكونَ التضحياتُ متكافئةً." ففي بعضِ الأحيانِ، قد يُقدمُ المرءُ جهداً عظيماً، ولا يجدُ من الطرفِ الآخرِ إلا النكرانَ أو عدمَ الفهمِ. لكنَّ المبدأَ يقولُ إنَّ قيمةَ التضحيةِ لا تُقاسُ بمنْ يستحقها، بل بنقاءِ النيةِ وصدقِ العطاءِ نفسهِ. لأنَّ ما تُقدمهُ من خيرٍ يعودُ إليكَ في نهايةِ المطافِ، بطرقٍ لا تتوقعها، وفي أشكالٍ قد لا تدركها لحظتئذٍ.

اليومَ، أيها الدفتر، هو يومٌ تشرقُ فيهِ شمسُ العدالةِ ببهائِها. يومٌ يُذكرني بأنَّ رسالتنا كمحامينَ تتجاوزُ حدودَ القضايا إلى تحقيقِ معنىً أعمقَ للإنسانيةِ. وأنَّ بذلَ الجهدِ لِمنْ هم في أمسِّ الحاجةِ إليهِ، دونَ انتظارِ مقابلٍ، هو الطريقُ الحقيقيُّ لِكسبِ الروحِ وعبورِ محيطاتِ الحياةِ بسلامٍ. إنها عظمةُ العطاءِ في أبهى صورها، وجمالُ الحقِ المنتصرِ.

حكمة العمر

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، بينما كنتُ أرتشفُ قهوتي في مكتبِ أحدِ الزملاءِ الذينَ يكبرونني سناً وخبرةً، دارَ بيننا حديثٌ عميقٌ عن طبيعةِ الإنسانِ وما يُقيمُهُ في هذا العالمِ. هذا الزميلُ، الذي قضى عقوداً في دهاليزِ المحاكمِ وفهمَ خبايا النفوسِ، ألقى عليّ حكمةً من تلكَ التي لا تُنسى، كلماتٌ بسيطةٌ في صياغتها، عميقةٌ في مغزاها.

قالَ لي وهوَ يُشيرُ بيدهِ إلى الفراغِ في الهواءِ، كأنما يُجسدُ المعنى: "ثلاثُ خصالٍ، مهما لمعَ الذهبُ، لا يمُكنُ لبريقِهِ أنْ يُجمّلها: العقلُ الخاوي، والنفسُ المتعاليةُ، واللسانُ السليطُ."

ترددتْ هذهِ الكلماتُ في عقليَ طوالَ اليومِ، أيها الدفتر، وكم وجدتُ لها صدقاً وتطبيقاً في رحابِ مهنتنا وفي الحياةِ بشكلٍ عام. فـ "العقلُ الخاوي"، مهما امتلكَ صاحبهُ من مالٍ أو جاهٍ، يظلُّ كغرفةٍ فارغةٍ لا تسكنها روحٌ. ترى البعضَ يتفاخرونَ بالمظاهرِ والألقابِ، لكنهمْ عندما يتحدثونَ، تكشفُ كلماتهمْ عن فقرٍ في الفكرِ، وضحالةٍ في الوعيِ، وعجزٍ عن فهمِ جوهرِ

الأشياءِ. والمحامي، إنْ لم يكنْ عقلُهُ ممتلئاً بالعلمِ والمعرفةِ والفهمِ العميقِ لِلبشرِ والقانونِ، فإنَّ أغنى ثيابِهِ لنْ تسترَ فراغَ جوهرِهِ.

أما "النفسُ المتعاليةُ"، فهي آفةٌ لا يُجملها أيُّ بريقٍ. كم رأيتُ من ذوي السلطةِ أو المالِ، أو حتى الزملاءِ الذينَ حققوا نجاحاً معيناً، تتورمُ نفوسهمْ بالغرورِ والتكبرِ، فيتعاملونَ مع الناسِ بِدونيةٍ وازدراءٍ. هذهِ التعاليَّةُ تُخفي غالباً هشاشةً داخليةً، وتُبعدُ القلوبَ عنها. فالاحترامُ الحقيقيُّ لا يُشترى بالمالِ ولا يُفرضُ بالمنصبِ، بل يُكتسبُ بالتواضعِ ونقاءِ السريرةِ. وفي مهنتنا، فإنَّ المحامي المتواضعَ، الذي يُصغي لِهمومِ موكليهِ بِصدقٍ، خيرٌ ألفَ مرةٍ من المتغطرسِ الذي لا يرى غيرَ نفسهِ.

وأخيراً، "اللسانُ السليطُ". يا لهُ منْ سهمٍ مسمومٍ لا يُجملُهُ ذهبُ الدنيا! فالكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، والكلمةُ الجارحةُ سيفٌ بتّارٌ. قد يظنُّ البعضُ أنَّ السلاطةَ في اللسانِ قوةٌ أو وسيلةٌ لفرضِ الرأيِ، لكنها في الحقيقةِ ضعفٌ وعجزٌ عن الحوارِ المنطقيِّ والتعاملِ برُقيٍّ. المحامي قد يحتاجُ إلى قوةِ الحجةِ وبلاغةِ القولِ، لكنَّ السليطَ من اللسانِ لا يُقنعُ أحداً، بل يُثيرُ النفورَ ويُفسدُ

العلاقاتِ، ويُفقدُ صاحبهُ مكانتهُ واحترامهُ، مهما علا شأنُهُ الظاهريُّ.

لقد خرجتُ من مكتبِ زميليَ وأنا أحملُ في قلبيَ هذهِ الكلماتِ كنورٍ يُضيءُ دربي. إنها تذكيرٌ ليَ، ولكلِّ منْ يسعى لِقيمةٍ حقيقيةٍ في حياتهِ، بأنَّ الجوهرَ يكمنُ في نقاءِ العقلِ، وسموِّ النفسِ، وطيبِ القولِ والفعلِ. فمهما كثرتْ الزينةُ الخارجيةُ، ومهما لمعتْ الألقابُ، فإنَّ هذهِ الخصالَ الثلاثَ هي وحدها القادرةُ على منحِ الإنسانِ جمالاً لا يُفنى ولا يبهتُ، جمالاً منْ صُلبِ الروحِ لا منْ بريقِ الذهبِ. وهذا هو الكنزُ الحقيقيُّ الذي نسعى إليهِ.

صمت الوجدان

أيها الدفتر الصامت!

لا أحدَ يُدركُ حجمَ ما يختلجُ في أعماقِنا. فمهما بدا علينا من الخارجِ صمتٌ، فإنَّ في سويداءِ القلبِ حياةً كاملةً تنبضُ.

في هذه المهنة، مهنة المحاماة التي اخترتُها درباً لي، أجدُ نفسيَ كثيراً ما أرتدي قناعَ الصمودِ والتركيزِ في قاعاتِ المحاكمِ، أو أُظهرُ رباطةَ جأشٍ في وجهِ التحدياتِ والقضايا الشائكةِ. يبدو المحامي من الخارجِ كحصنٍ منيعٍ، لا تهزهُ العواصفُ، ولا تُبديهِ الرياحُ. لكنَّ هذا الظاهرَ الهادئَ، أيها الدفتر، لا يُعبرُ أبداً عنْ حقيقةِ ما يجريَ في دواخلنا.

إنَّ رسالةَ المحاماةِ نبيلةٌ بحقٍّ، تتجاوزُ كونَها مجردَ وظيفةٍ أو حرفةٍ. إنها أمانةٌ تلامسُ أعمقَ جوانبِ الروحِ الإنسانيةِ. فكلُّ قضيةٍ ليستْ مجردَ أوراقٍ وموادَ قانونيةٍ، بل هي قصصٌ حيةٌ لأناسٍ يُعانونَ، لِأرواحٍ تُصارعُ الظلمَ، لِحقوقٍ تُسلبُ. وفي خضمِّ هذا، تُصبحُ مشاعرُ الموكلينَ، آمالهمْ وخيباتهمْ، جزءًا لا يتجزأُ من نسيجِ حياتنا الداخليةِ، مهما حاولنا أن نبدوَ غيرَ متأثرينَ.

وهنا تكمنُ الحقيقةُ التي تُعبرُ عنها حكمةُ اليومِ: "لا أحدَ يُدركُ حجمَ ما يختلجُ في أعماقِنا. فمهما بدا علينا من الخارجِ صمتٌ، فإنَّ في سويداءِ القلبِ حياةً كاملةً تنبضُ." هذهِ الحياةُ الكاملةُ هي مزيجٌ من التعاطفِ مع الضحايا، والغضبِ من الظلمِ، والإحباطِ من تعقيداتِ النظامِ، والأملِ الذي لا يموتُ في انتصارِ الحقِّ. هي صراعٌ داخليٌّ بينَ المنطقِ والعاطفةِ، بينَ القانونِ والإنسانيةِ، بينَ ما يجبُ أن يكونَ وما هو كائنٌ.

إننا نصمتُ أحياناً، لا ضعفاً، بل لأنَّ الكلماتِ لا تسعفُنا في التعبيرِ عنْ حجمِ الألمِ الذي نحملهُ عنْ غيرنا، أو عنْ عمقِ المسؤوليةِ التي نُلقيها على عاتقِنا. في ذلكَ الصمتِ، تُقامُ حروبٌ كاملةٌ، تُنسجُ خططٌ، تُراجعُ ضمائرُ، وتُرسخُ مبادئُ. هذا الصمتُ ليسَ خلوًا، بل هو امتلاءٌ بكلِّ ما هوَ جوهريٌّ وعميقٌ في رسالتنا.

إنَّ نبلَ هذهِ المهنةِ لا يكمنُ في المرافعاتِ البليغةِ أو الانتصاراتِ المدويَّةِ فحسب، بل يكمنُ في ذلكَ العالمِ الخفيِّ الذي يسكنُ وجدانَ المحامي. في قدرتهِ على حملِ أوجاعِ الآخرينَ، في إصرارهِ على السعيِ نحو العدلِ رغمَ كلِّ العقباتِ، في صمودهِ أمامَ الضغوطاتِ التي تُحاولُ أنْ تُطفئَ شعلةَ الإيمانِ

لديهِ. هذا الجانبُ الخفيُّ هو ما يُعطي لِلقضاءِ روحَهُ، ولِلمحاماةِ شرفَها.

فمهما كثرتْ الضغوطُ، ومهما بدا المسارُ شاقاً، سأظلُّ أُؤمنُ بِهذهِ الرسالةِ النبيلةِ. سأظلُّ أحتفظُ بِحياةٍ كاملةٍ تنبضُ في سويداءِ قلبيَ، مُدركاً أنَّ صمتيَ الظاهرَ هو انعكاسٌ لِعمقِ التراميَ وإيمانيَ المطلقِ بِأنَّ الحقَّ، مهما طالَ الأمدُ، لا بدَّ أن ينتصرَ، وأنَّ للإنسانِ كرامةً يجبُ أن تُصانَ.

مدارس الحياة

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، أيها الدفتر، استقبلتُ في مكتبي محامياً متمرناً جديداً. شاباً يافعاً، عيناه تلمعانِ ببريقِ الطموحِ والمعرفةِ النظريةِ التي اكتسبها حديثاً من كُتبِ القانونِ. رأيتُ فيهِ نفسيَ قبلَ سنواتٍ طوالٍ، ذاك الشغفُ الذي لا يعرفُ حدوداً، وتلكَ الحماسةُ التي لم تُصقلها بعدُ لهيبُ التجاربِ. وبعدَ أن أسديتُ إليهِ بعضَ التوجيهاتِ الأوليةِ حولَ روتينِ العملِ في المكتبِ، تذكرتُ حكمةً لا تقدرُ بثمنٍ، أردتُ أن أغرسها في روحهِ قبلَ أن يُلقيَ بهِ اليمُّ في غمارِ الحياةِ المهنيةِ الحقيقيةِ.

قلتُ لهُ، مُبتسماً: "يا بني، إنَّ المرءَ الذي تُصقلُهُ مصاعبُ الحياةِ وشدائدُها، لنْ يحتاجَ بعدَها أنْ يكونَ تلميذاً لِأحدٍ."

هذهِ الكلماتُ، أيها الدفتر، ليستْ مجردَ مقولةٍ عابرةٍ، بل هي خلاصةُ تجاربَ مريرةٍ، ودروسٍ لا تُلقّنُ في الجامعاتِ أو تدوّنُ في المراجعِ. إنها فلسفةُ الحياةِ التي تُفهمُ بالمواجهةِ لا بالتلقينِ. فمهنةُ المحاماةِ، ليستْ مجردَ فصولٍ في قانونٍ، بل هيَ تفاعلٌ

يوميٌّ معَ قصصِ البشرِ، معَ أحزانهمْ وأفراحهمْ، معَ ظلمٍ يقعُ، وحقٍّ يُنتزعُ. الكُتبُ تمنحكَ الخريطةَ، لكنَّ وعورةَ الطريقِ وحدها هيَ التي تُعلّمُكَ كيفَ تسيرُ.

إنَّ "مصاعبَ الحياةِ" في سياقِ مهنتنا هي تلكَ القضايا المُعقدةُ التي لا حلَّ لها في نصٍّ واضحٍ، هيَ الموكلونَ الذينَ تُخيّمُ عليهمْ الظروفُ القاسيةُ، هيَ الخساراتُ التي تُكسرُ القلبَ، هيَ المواجهاتُ المريرةُ معَ خصومٍ لا يعرفونَ إلا المكرَ، هيَ لحظاتُ الشكِّ في القدرةِ على تحقيقِ العدالةِ. كلُّ هذهِ الصعوباتِ، أيها الدفتر، ليستْ عثراتٍ تُعيقُ، بل هيَ معلّمونَ صامتونَ، يُصقلونَ العزيمةَ، ويُقوّونَ الشكيمةَ، ويُكسبونَ البصيرةَ التي لا تُشترَى.

عندما يَجدُ المحامي نفسهُ وحيداً في مواجهةِ تحدٍّ عظيمٍ، عندما لا يجدُ نصاً صريحاً يسانده، أو مرجعاً يقدمُ لهُ حلاً جاهزاً، فإنَّ دروسَ "مصاعبِ الحياةِ" تبدأُ في الظهورِ. يتعلمُ كيفَ يُفكرُ خارجَ الصندوقِ، كيفَ يعتمدُ على حدسِهِ، كيفَ يصمدُ تحتَ الضغطِ، وكيفَ يُحولُ الفشلَ إلى سلمٍ للنجاحِ. هذهِ الدروسُ هي التي تُشكلُ "الإنسانَ" الذي لنْ يحتاجَ أنْ يكونَ تلميذاً لِأحدٍ؛ لا

لأنهُ لا يُصغي لِخبرةِ الآخرينَ، بل لأنهُ طوّرَ لنفسهِ بوصلةً داخليةً لا تُضلُّهُ، وعقلاً ناقداً لا يُخدعُ، وروحاً صلبةً لا تنكسرُ.

إنني، أيها الدفتر، أرى في هذا المتمرنِ الجديدِ بذرةَ محامٍ عظيمٍ. وسأُقدمُ لهُ كلَّ ما أملكُ من خبرةٍ وتوجيهٍ. لكنني أُدركُ أنَّ أعظمَ دروسهِ سيُلقيها عليهِ الواقعُ بنفسهِ، بتحدياتهِ القاسيةِ وخيباتهِ الموجعةِ، وبانتصاراتهِ التي تُشعلُ الروحَ. فليُقبلْ على هذهِ المصاعبِ بِشجاعةٍ، وليتعلمْ من كلِّ عثرةٍ، وليثقْ بأنَّ كلَّ تجربةٍ صعبةٍ هيَ خطوةٌ نحوِ التحررِ من التبعيةِ، ونحوِ بناءِ ذلكَ المحاميَ الذي سيقفُ شامخاً، مُستقلاً في فكرهِ، راسخاً في مبادئهِ، تلميذاً أوفى لِمدرسةِ الحياةِ العظمى.

أزمنة الروح

أيها الدفتر الصامت!

في هذا الجنوب الشرقي، حيث تتجاورُ بسطةُ الحياةِ معَ عُمقِ التجربةِ، أجدُ نفسيَ كثيراً ما أتأملُ في تناغمِ الزمنِ وتنافرِهِ داخلَ أرواحِ البشرِ. قد نُعانقُ الماضيَ في لحظةٍ عابرةٍ، مُستسلمينَ لِشجنِ ذكرى، ثمَّ ما نلبثُ أنْ نُدركَ أننا راسخونَ في الحاضرِ بِكلِّ تفاصيلِهِ ووقائعِهِ. وفي خضمِّ هذا، ربما نجدُ أنفسنا غيرَ راضينَ عن واقعنا، مُتلهفينَ لِما هو قادمٌ، مُتعجّلينَ لِغدٍ قد يحملُ في طياتهِ ما نرجوهُ.

كأننا نُقيمُ بينَ ثلاثةِ مواقفَ كلَّ يومٍ: ذكرى تُشدّنا إلى ما كانَ، وواقعٌ يُثقلُنا بما هو كائنٌ، وحلمٌ يدعونا إلى ما سيكونُ. في هذهِ المنطقةِ، حيثُ التاريخُ يتنفسُ في كلِّ زاويةٍ، تُصبحُ الذكرى جزءًا لا يتجزأُ من النسيجِ اليوميِّ، تُشكلُ الوعيَ وتُلقي بظلالها على الحاضرِ. والواقعُ، بكلِّ تحدياتهِ وأحياناً قسوتِهِ، يفرضُ نفسهُ بِثقلٍ، مُجبراً على المواجهةِ والتفكيرِ في سُبلِ التغييرِ.

أظنُّ، أيها الدفتر، أنَّ تمحيصَ الواقعِ، وفهمَ أبعادهِ، هو في حقيقةِ الأمرِ تمهيدٌ لِما هو آتٍ. فالمستقبلُ لا يُبنى على الأوهامِ، بل على أساسٍ متينٍ من الوعيِّ بظروفِ الحاضرِ ومتطلباتِه. وهنا تكمنُ النقطةُ الجوهريةُ التي تُريحُ الروحَ: إنَّ العيشَ في الحاضرِ، مُتحررينَ من تأثيرِ الماضي الذي قد يُقيدنا بِندمٍ أو حنينٍ زائدٍ، ومن خوفِ المستقبلِ الذي قد يُشلُّ حركتنا بالترقبِ والقلقِ، يُورثُ طمأنينةً وهدوءاً تاماً.

حينها، لا يشوبُ حياتنا ضغطٌ من أعباءٍ لا تخصُّ اللحظةَ الراهنةَ، ولا تُثقلُنا معاتباتٌ على ما فاتَ أو قلقٌ على ما لم يأتِ بعدُ. يُصبحُ الحاضرُ كصفحةٍ بيضاءَ نقيةٍ، نرغبُ في ملئها بِألوانٍ بهيجةٍ لا تروعُ أحداً، ولا تحملُ في طياتها إلا الخيرَ والجمالَ. هي ألوانٌ لا تُعكرُ صفوَّ الذاكرةِ، بل تُحدثُ فارقاً إيجابياً بينها وبينَ ذكرياتِ الأمسِ التي قد تكونُ مُثقلةً.

إننا لا نرغبُ أنْ يُسيطرَ الزمنُ على أيامنا، يُجرنا خلفَ عجلةٍ لا نتوقفُ فيها للتأملِ أو لِلعيشِ بِصدقٍ. لا نُريدُ مزيداً من هدرِ الأوقاتِ الثمينةِ في تسوّفٍ أو قلقٍ لا يُجدي. بل ننشدُ لحظاتٍ نشعرُ بها حقاً، نُدركُ فيها قيمةَ كلِّ ثانيةٍ، نُعطيها كلَّ وعينا

ووجودنا. نريدُ حاضراً يضجُّ بالحبِّ الذي يجمعُ القلوبَ، والاطمئنانِ الذي يُسكنُ الروحَ، والقوةِ التي تدفعنا نحو الإنجازِ، والفعاليةِ التي تُحولُ الأفكارَ إلى واقعٍ ملموسٍ.

كلُّ ذلكَ، أيها الدفتر، يتوّجُهُ ذلكَ الشعورُ المُفعمُ بالرضا والسكينةِ الذي يأتي بعدَ تخطيطٍ ناجحٍ وعملٍ دؤوبٍ. حينها، لا يكونُ العيشُ في الحاضرِ هروباً، بل هوَ تجسيدٌ للوعيِّ، وتأكيدٌ على القدرةِ على تشكيلِ المصيرِ. إنها فلسفةٌ، أراها تتجلى في وجهِ كلِّ فلاحٍ يزرعُ أرضَهُ بيقينٍ، وفي عيني كلِّ حرفيٍ يُبدعُ بِشغفٍ، وفي صمودِ كلِّ روحٍ تُصارعُ الظلمَ هنا في الجنوب الشرقي. هي الحياةُ الحقيقيةُ التي نسعى إليها.

حكم راسخ

أيها الدفتر الصامت!

اليوم، أيها الدفتر، شهدتُ قاعة المحكمة نصراً آخر، كانَ بالنسبةِ ليَ أكثرَ من مجردِ كسبِ قضيةٍ؛ لقد كانَ تأكيداً لِثباتِ مبدأٍ قانونيٍّ راسخٍ، تُعالجُ بهِ كثيرٌ من النزاعاتِ العقاريةِ. لقد انتصرنا في دعوى إفراغٍ ضدَّ مستأجرٍ أحدثَ تغييراتٍ في العينِ المكتراةِ دونَ أخذِ الموافقةِ الكتابيةِ اللازمةِ من المؤجرِ. وكم كانَ شعورُ الرضا يغمرنيَ وأنا أرى حكمَ المحكمةِ يُصادقُ على هذا المبدأِ بوضوحٍ لا لبسَ فيهِ.

لقد استندتْ مرافعاتنا على قرارٍ أصدرتهُ محكمةُ النقضِ، الذي يُعدُّ حجرَ زاويةٍ في فقهِ العقودِ، والذي يُوضحُ بشكلٍ قاطعٍ أنَّ: "إحداثَ المستأجرِ لتغييراتٍ في العينِ المُكتراةِ دونَ موافقةٍ كتابيةٍ من المؤجّرِ يُعدُّ إخلالاً ببنودِ العقدِ الرابطِ بينهما، بغضِّ النظرِ عن طبيعةِ هذهِ التغييراتِ. ويستتبعُ ذلكَ إخلاءَهُ ومن يحلُّ محلَّهُ من المحلِّ دونَ تعويضٍ."

هذهِ الكلماتُ، أيها الدفتر، ليستْ مجردَ صياغةٍ قانونيةٍ جافةٍ، بل هيَ تعبيرٌ عنْ حمايةٍ أساسيةٍ لحقوقِ الملاكِ، وتنظيمٍ ضروريٍّ للعلاقاتِ التعاقديةِ. فكم من نزاعٍ نشأَ لأنَّ مستأجراً ظنَّ أنَّ إدخالَ تحسيناتٍ بسيطةٍ أو تغييراتٍ لِغرضٍ شخصيٍّ لا يتطلبُ موافقةَ المالكِ! وكم من مالكٍ وجدَ عقارهُ قد تغيرَ عنْ هيئتهِ الأصليةِ دونَ علمِهِ أو رضاهُ! هذهِ الحالاتُ تُسببُ نزاعاتٍ طويلةً ومريرةً.

إنَّ جمالَ هذا القرارِ، أيها الدفتر، يكمنُ في وضوحِهِ وشموليتِهِ. فهو لا يتركُ مجالاً للتأويلِ أو التفسيرِ الشخصيِّ. فعبارةُ "بغضِّ النظرِ عن طبيعةِ هذهِ التغييراتِ" هيَ جوهرُ الحكمةِ هنا. فلا يُهمُّ ما إذا كانتِ التغييراتُ بسيطةً كطلاءِ جدارٍ بلونٍ مختلفٍ، أو جذريةً كإزالةِ جدارٍ داخليٍّ. الأهمُّ هوَ غيابُ الإذنِ الكتابيِّ الصريحِ من المالكِ. هذا المبدأُ يُعززُ قدسيةَ العقدِ، ويُحميَ حقوقَ الملكيةِ، ويُلزمُ الأطرافَ بالشفافيةِ والالتزامِ.

وإنَّ جزاءَ الإخلاءِ "بدونِ تعويضٍ" هوَ ردعٌ قويٌّ لِضمانِ التزامِ المستأجرينَ بِشروطِ عقودهمْ. قد يبدو صارماً للبعضِ، لكنهُ ضروريٌّ لِفرضِ الانضباطِ التعاقديِّ وضمانِ استقرارِ المعاملاتِ.

فليسَ منَ العدلِ أنْ يتحملَ المالكُ تبعاتِ تصرفاتٍ لمْ يُوافقْ عليها.

إنَّ الانتصارَ في مثلِ هذهِ القضايا يُعطيني شعوراً عميقاً بالرضا، ليسَ لِفوزيَ الشخصيِّ، بل لأنني أسهمتُ في ترسيخِ العدالةِ، وتطبيقِ القانونِ بِحذافيرِه. فمحكمةُ النقضِ، بقراراتها هذهِ، لا تُصدرُ أحكاماً في قضايا فرديةٍ فحسب، بل تضعُ أسساً قانونيةً تُضيءُ الدربَ لِلمحاكمِ الأدنى، وتُرسخُ مبادئَ تُنظمُ حياةَ الناسِ ومعاملاتهمْ. هوَ انتصارٌ للقانونِ، ودرسٌ لِكلِّ منْ يتهاونُ في احترامِ بنودِ العقودِ. وهذا هو جوهرُ عملنا، أيها الدفتر: أنْ نكونَ حماةً لِلقانونِ، وأنْ نُعليَ منْ شأنِ مبادئهِ، حتى لو بدتْ في بعضِ الأحيانِ صارمةً.

صدق المهنة

أيها الدفتر الصامت!

في هذه المهنةِ الشريفةِ التي اخترتُها، مهنةِ المحاماةِ، تتجلى ليَ في كلِّ يومٍ المبادئُ الساميةُ التي تُعليَ من شأنها، وتُبعدُها عن مجردِ كونِها وسيلةً لكسبِ العيشِ. إنها رسالةٌ تستوجبُ الصدقَ والنقاءَ، لا سيما ونحنُ نُدركُ أنَّ: "الفرقَ بينَ المساعدةِ الحقيقيةِ والمظهرِ الزائفِ كبيرٌ؛ فمتصنعُ الودِّ أخبثُ وأشدُّ ضرراً من صريحِ العداءِ."

كم مرةٍ، أيها الدفتر، رأيتُ هذا المبدأَ يتجسدُ أماميَ في ساحاتِ العدالةِ وخارجها. إنَّ المساعدةَ الحقيقيةَ في مهنتنا هي تلكَ التي تُقدمُ بِقلبٍ خالصٍ، لا يبحثُ عن مديحٍ أو مكسبٍ شخصيٍّ زائلٍ. هي التزامٌ عميقٌ بِحمايةِ الحقوقِ، ووقوفٌ شجاعٌ إلى جانبِ المظلومِ، حتى وإنْ كانَ طريقُ النصرِ وعراً ومحفوفاً بالصعابِ. هي أنْ تُقدمَ النصيحةَ الصادقةَ لِموكلِكَ، حتى لو كانتْ مُرةً أو غيرَ مُحببةٍ، لأنَّ مصلحتهُ تقتضيها. هذهِ المساعدةُ تنبعُ منْ جوهرِ المهنةِ ورسالتها النبيلةِ.

في المقابلِ، هناكَ "المظهرُ الزائفُ". هذا هو الجانبُ المظلمُ الذي يُحاولُ البعضُ أنْ يُغلفوا بهِ نواياهمْ الحقيقيةَ. إنهُ ذلكَ المحامي الذي يُجاملُ بكلماتٍ معسولةٍ، ويُقدمُ وعوداً براقةً لا يمُكنُ الوفاءُ بها، يُظهرُ وداً زائداً لِيكسبَ ثقةَ الموكلِ، بينما هدفُهُ الوحيدُ هوَ المالُ أو الشهرةُ. هذا التلونُ، هذا القناعُ الذي يُرتدى، هوَ ما يجعلهُ "أخبثَ وأشدَّ ضرراً من صريحِ العداءِ".

ولماذا هوَ أخبثُ؟ لأنَّ العدوَّ الصريحَ واضحٌ في عداوتهِ، تُدركُ نيتَهُ فتستعدُّ لِمواجهتهِ، تُحصّنُ نفسك من غدرهِ. لكنَّ متصنعَ الودِّ، أيها الدفتر، يتسللُ إلى قلبِكَ تحتَ ستارِ الصداقةِ أو الاهتمامِ، يُخادعُكَ بمظهرهِ، ويُغررُ بِكَ بِكلماتهِ المنمقةِ، ثمَّ يطعنُكَ منْ حيثُ لا تحتسبُ. في مهنتنا، قد يُكلفُ هذا الزيفُ الموكلَ قضيتهُ، أو مالَهُ، أو حتى حريتهُ، لأنهُ وثقَ بِمظهرٍ لا يُخفي سوى الخيانةِ والغدرِ.

إنَّ المبادئَ الساميةَ لمهنةِ المحاماةِ تُنادي بِالصدقِ المطلقِ، والشفافيةِ التامةِ في التعاملِ معَ الموكلينَ والخصومِ على حدٍّ سواءٍ. هي تدعونا إلى أنْ نكونَ واضحينَ في مواقفنا، أمينينَ في وعودنا، مخلصينَ في سعينا لِتحقيقِ العدلِ. لا يعني هذا ألا نكونَ

أذكياءَ أو محترفينَ، بل يعني ألا نستخدمَ ذكاءنا لِلتضليلِ، ولا احترافيتنا لِلتزييفِ.

لذلكَ، أيها الدفتر، سأظلُّ أُعلّمُ المتمرنينَ الجددَ، وأُذكّرُ نفسيَ دائماً، أنَّ الصدقَ في المساعدةِ، ونقاءَ النيةِ في الدفاعِ، هما الميراثُ الحقيقيُّ لهذهِ المهنةِ. وإنَّ أبهى صورِها لا تكمنُ في البذلةِ الأنيقةِ أو المرافعاتِ الرنانةِ، بل في الضميرِ الحيِّ الذي لا يعرفُ الزيفَ، وفي القلبِ الذي يُقدمُ العونَ بِصدقٍ، مُدركاً أنَّ الثقةَ هيَ أغلى ما يمُكنُ أنْ يُقدمَهُ المحامي لِموكلِهِ، وأنَّ كسرَ هذهِ الثقةِ بِمتصنعِ الودِّ أشدُّ فتكاً منْ أيِّ عدوانٍ صريحٍ. هذا هو المبدأُ الذي لا أُساومُ عليهِ أبداً.

نبض مستمر... وإلى الأبدية

أيها الدفتر الصامت، يا من كنتَ ليَ أكثرَ منْ مجردِ أوراقٍ محشوةٍ بِالمدادِ، بل كنتَ محرابيَ السريَّ الذي أعتكفُ فيهِ لِأُعيدَ تشكيلَ روحيَ، ورفيقيَ الأبكمَ الذي ما خانَ سريَ يوماً، ومرآتيَ الساحرةَ التي تعكسُ ليَ أعماقَ ذاتيَ بِكلِّ شفافيةٍ وصدقٍ!

ها نحنُ اليومَ نقفُ، أنا وأنتَ، على أعتابِ خاتمةِ هذا المجلدِ منَ "اليومياتِ" التي احتضنتْنيَ واحتضنتُها بِكلِّ ما أوتيتُ منْ وعيٍ وشغفٍ. صفحاتُكَ البيضاءُ، التي استقبلتْ منيَ همساتيَ وخباياَ روحيَ، صراعاتيَ الخفيةَ وأفراحيَ المُتلعثمةَ، شكوكيَ التي كانتْ تنهشُ اليقينَ، وانتصاراتيَ التي كانتْ تُرسمُ بسمةَ أملٍ على وجوهٍ أنهكتها الأيامُ، أصبحتْ الآنَ مُتحفاً صغيراً لِأجزاءَ منْ روحيَ، وشهادةً حيةً على سنواتٍ انقضتْ في رحابِ العدالةِ ودهاليزِها المعقدةِ. كلُّ سطرٍ هنا، وكلُّ تأملٍ، هوَ نبضٌ صادقٌ منْ رحلتيَ، تُرجمَ منْ صخبِ العالمِ إلى سكونِ الكلماتِ، ومنْ فوضىَ المشاعرِ إلى انسجامِ الفكرِ.

إنَّ هدفيَ منْ هذهِ السطورِ المتواضعةِ، أيها الدفتر، لمْ يكنْ يوماً مُقتصراً على تسجيلِ الأحداثِ القانونيةِ الجافةِ أو توثيقِ القضايا اليوميةِ العابرةِ التي تُشكلُ صميمَ عمليَ. بلْ كانَ أعمقَ منْ ذلكَ بكثيرٍ، فقدْ كانتْ هذهِ الكتابةُ بالنسبةِ ليَ بمثابةِ طقسٍ يوميٍّ مُقدّسٍ، رحلةِ غوصٍ عميقةٍ في بئرِ الوعيِ البشريِّ، حيثُ تُصبحُ الأفكارُ المُبعثرةُ كشظايا الزجاجِ مُنظّمةً في فسيفساءَ منَ الفهمِ العميقِ. هيَ مختبريَ الفكريُّ الذي أُصقلُ فيهِ أبعادَ الإنسانيةِ في مواجهةِ القسوةِ واللامبالاةِ، وأُحاولُ أنْ أُصالحَ فيهِ بينَ برودةِ النصوصِ القانونيةِ وجفافِ موادها، وبينَ لهيبِ العواطفِ البشريةِ التي تُحركُ كلَّ نزاعٍ، وأُوازنُ بينَ المبدأِ وواقعهِ المعقدِ، وكيفَ أُحوّلُ الخبرةَ الخامَ إلى حكمةٍ مُقطرةٍ تُرشدُ خطايَ في دروبِ الحياةِ والمهنةِ. كلُّ كلمةٍ خططتها هنا كانتْ خطوةً في درجيَ التطورِ الروحيِّ والمهنيِّ، تُشحذُ بصيرتيَ بِكلِّ حدةٍ، وتُعمّقُ فهميَ لِخيوطِ العدالةِ المتشابكةِ التي تُنسجُ هذا الوجودَ البشريَّ بِكلِّ ما فيهِ منْ نورٍ وظلامٍ.

لقدْ وثّقتُ هنا ليسَ فقطْ ما فعلتُهُ في ساحاتِ القضاءِ أوَ ما رافعتُ بهِ بلسانيَ، بلْ ما شعرتُ بهِ في كلِّ لحظةٍ عصيبةٍ

ومفصليةٍ، وما تعلمتُهُ منْ كلِّ خسارةٍ بدتْ نهايَةً، ومنْ كلِّ انتصارٍ بدا مستحيلاً. هذهِ اليومياتُ هيَ أرشيفيَ الشخصيُّ الذي لا يُمكنُ أنْ تُباعَ كنوزه، إنها تُسجلُ تلكَ اللحظاتِ الهاربةَ منَ الزمنِ، لِتلكَ التفاصيلِ البشريةِ الدقيقةِ التي لا تُسجلها المحاضرُ الرسميةُ أوَ الكُتبُ الجامدةُ. هنا تجدُ صدىَ دموعِ المظلومِ الصامتةِ، وشهقةَ المقهورِ التي لا يسمعها إلا الوجدانُ المُرهفُ، ولمعانَ الأملِ في عينيَّ منْ استعادَ حقهُ بعدَ طولِ عناءٍ، وتلكَ الابتسامةَ العذبةَ التي تُعيدُ لِقلبيَ الإيمانَ بِالإنسانيةِ. هيَ محاولةٌ لإضفاءِ الخلودِ على هشاشةِ اللحظةِ الإنسانيةِ، لِتأكيدِ أنَّ خلفَ كلِّ ملفٍ قضائيٍّ مكدّسٍ على مكتبيَ، هناكَ قلبٌ ينبضُ، وروحٌ تتألمُ أو تفرحُ، وقصةٌ كاملةٌ تستحقُ أنْ تُروىَ وتُفهمَ. ولقد كانتْ هذهِ الصفحاتُ ملاذيَ الذي أُلقيَ فيهِ أثقالاً لا تُرىَ ولا يُمكنُ أنْ تُدركَ، أُطلقُ بها ما تراكمَ في صدريَ منْ همومٍ مُضنيةٍ وإحباطاتٍ مُجففةٍ، لِأعودَ إلى المعركةِ القانونيةِ بِروحٍ مُتجددةٍ ونفسٍ مُتطهرةٍ، مُستعداً لِخوضِ غمارِ العدالةِ منْ جديدٍ بِكلِّ ما أوتيتُ منْ قوةٍ وعزمٍ.

لكنَّ هذا المجلدَ، أيها الدفترُ الصامتُ، ليسَ إلا نقطةً صغيرةً في محيطِ حياتيَ الذي لا يعرفُ الانتهاءَ. إنها ليستْ خاتمةً لِكتابٍ يُغلقُ إلى الأبدِ، بلْ هيَ محطةٌ لِلتأملِ العميقِ، لِإعادةِ ترتيبِ الأوراقِ المبعثرةِ في حياتيَ، ولِلتزودِ بِزادِ الوعيِ قبلَ الانطلاقِ مُجدداً في دروبٍ أوسعَ وأكثرَ اتساعاً. فالحياةُ، بِكلِّ ما فيها منْ تقلباتٍ ومفاجآتٍ، منْ جمالٍ وقبحٍ، منْ ألمٍ وأملٍ، لا تتوقفُ عنْ إلقاءِ دروسها، وتقديمِ حكاياتها التي تُصقلُ الروحَ وتُثري التجربةَ. ومادامتْ الروحُ تنبضُ في هذا الجسدِ الفاني، وما دامَ القلمُ قادراً على تركِ أثرٍ حيٍّ على هذهِ الصفحاتِ التي لا تنتهيَ، سأستمرُ في الكتابةِ. هيَ ليستْ مجردَ عادةٍ فرضتها الأيامُ، بلْ هيَ ضرورةٌ وجوديةٌ، ونفسٌ يخرجُ منيَ لِيثبتَ أنني حيٌّ، وصوتٌ داخليٌّ لا يمكنُ أنْ يُصمتَ أو يُخمدَ.

كلُّ صباحٍ جديدٍ يُشرقُ عليَّ هنا في الجنوبِ الشرقيِّ، بِشمسِهِ الدافئةِ وهوائهِ العليلِ، هوَ دعوةٌ لِفتحِ صفحةٍ بيضاءَ في دفترٍ آخرَ، أو لِإضافةِ سطرٍ جديدٍ في هذهِ اليومياتِ التي سأظلُّ أُجددُها معَ كلِّ نبضةِ قلبٍ، ومعَ كلِّ شهقةِ روحٍ، ومعَ كلِّ درسٍ تُلقيهِ عليَّ الحياةُ. سأظلُّ أبحثُ عنْ المعنىَ في التفاصيلِ الأكثرِ عاديةً والتي

يراها الآخرونَ تافهةً، وعنْ الحكمةِ في المواقفِ الأشدِّ تعقيداً والتي تُحيّرُ العقولَ، وعنْ النورِ في أعماقِ الظلامِ الأكثرِ كثافةً ويأساً. سأستمرُ في التساؤلِ، والتأملِ، والكتابةِ، ففيها أجدُ توازنيَ بينَ العالمِ الخارجيِّ المُتقلبِ، وسلاميَ الداخليِّ العميقِ، وفيها أُصالحُ بينَ كونيَ محامياً يُدافعُ عنْ الحقِّ بِشراسةٍ، وكونيَ إنساناً يُحاولُ أنْ يفهمَ الحياةَ بِكلِّ تعقيداتها وجمالها وسرها الأبديِّ الذي لا يُفصحُ عنهُ إلا لِمنْ يُجيدُ الإنصاتَ والتأملَ.

فالدفترُ الصامتُ هذا، وما يليهِ منْ دفاترَ ستُضافُ إلى رفوفيَ، سيظلُّ شاهداً أميناً على رحلةِ محامٍ يفتخرُ بِرسالتهِ النبيلةِ، ويُؤمنُ بِأنَّ الحياةَ، بِكلِّ حلوها ومرّها، بِكلِّ تقلباتها وأحزانها وأفراحها، تستحقُّ أنْ تُعاشَ بِوعيٍ، وتُدوّنَ بِصدقٍ، وتُروىَ بِكلِّ شغفٍ وعمقٍ. هوَ نبضٌ مستمرٌ، وقصةٌ لا تعرفُ الانتهاءَ، لِأنهاَ قصةُ الروحِ البشريةِ في سعيها الأبديِّ نحو الحقِّ، والجمالِ، والمعنىَ. وإلى اللقاءِ في صفحاتٍ لا تُحصى... ما دامَ في القلبِ نبضٌ، وفي القلمِ مدادٌ، وما دامتْ العدالةُ حلماً يُوقدُ في النفوسِ نارهُ. الرحلةُ مستمرةٌ، والكتابةُ نبضٌ لا ينقطعُ... إلى الأبديةِ.

الفهرس

إهداء: _____ 5

خيوط متشابكة من الظلام _____ 7

قبضة العدالة على خيوط الظلام_____ 9

حين تُشرق شمسُ العدالة من كبدِ الأم! _____ 11

الغدر في ردهات العدالة _____ 15

تكسير الأماني_____ 21

صمت الهاتف: خيانة موكّل ومرارة الثقة _____ 24

بين مطرقة الواقع وسندان الأسطورة _____ 27

الإنتظار: فلسفة زمن غامض على أجنحة العدالة _____ 30

ميراثٌ وتشابك المصائر_____ 33

شهية الروح وصخب العدالة_____ 37

حكاية خيالية _____ 40

اليومية الأولى لحكاية خيالية: قناع الأمانة ولسان الأفاعي _____ 42

اليومية الثانية للحكاية الخيالية: الجشع يتراقص على أنقاض العزاء 45

قيود الأجنحة وعزلة الفجر _____ 50

ندوب الروح _____ 54

عاشوراء، وحكاية تربية على قارعة الطريق ____ 57
صمت الأجنحة المكسورة ____ 60
همس الشك وظلال الحقيقة ____ 64
عبث القدر في قاعة الانتظار ____ 67
بين صخب الأفراح وصمت المقابر ____ 69
بين براءة الظنّ ولعنة الجحود ____ 73
عدالةٌ حانية ____ 77
حبلُ الصوتِ القاتل ____ 81
ثمنُ الانتقام ____ 84
حكمٌ ومغزى: فيلا وثقةٌ منقوضة ____ 87
جبلٌ، وجريمة، وصرخةُ جسد ____ 90
صرخةُ مستقبلٍ ____ 94
صراخُ الإعلامِ وميزانُ القضاء ____ 98
وعودٌ كاذبةٌ... وقانونٌ حائر ____ 101
رحلةُ الرزق ____ 104
ثمنُ المواجهة ____ 107
موازينُ السماء ____ 110
عِبرةُ الأيام ____ 113

غزوٌ رقميٌّ... وضمائرُ مهددة ____ 116
ثمنُ الظهور ____ 119
خلودُ الفكر ____ 122
قصةٌ وراءَ الواجهة ____ 125
لينُ الأقدار ____ 128
ثقلُ الاعترافِ... ومرارةُ الضمير ____ 131
ضمير الزور ____ 134
سراب الشهادة ____ 138
ليل الظلم ____ 142
ثمن الجحود ____ 146
ثقة مغدورة ____ 150
ضباب الروح ____ 154
ذكاء الطيب ____ 157
إيمان راسخ ____ 161
فخر العطاء ____ 165
نداء الطفولة الخفي ____ 168
وسام شرف ____ 172
شراك الوهم ____ 175

ثمن الصدق ____ 178
أسفار الواجب ____ 181
بوابات الروح ____ 184
حرية الفكر ____ 187
ثبات المبدأ ____ 190
نصر العطاء ____ 193
حكمة العمر ____ 196
صمت الوجدان ____ 199
مدارس الحياة ____ 202
أزمنة الروح ____ 205
حكم راسخ ____ 208
صدق المهنة ____ 211
نبض مستمر... وإلى الأبدية ____ 214
الفهرس ____ 219